

انتقام فوستا
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^
تأليف
ميشال زيفاكو

الطبعة الثانية
١٩٩١م.

- ١ -

ظهور فوستا

غادر باريس في صباح الثاني عشر من شهر ايار سنة ١٥٨٨ ، ستة من النبلاء ، مضوا مسرعين نحو اعالي (شاليوت) حتى انتهوا الى قمتها، حيث وقفوا يأخذون لانفسهم بعض الراحة .

نظر رئيسهم الى باريس وقال يخاطبها بصوت حزين حاقد ناقم :

ــ ايتها البلدة الجاحدة التي احببتها اكثر من امرأتي .. سوف اعود اليك فاتحا غاضبا ، والويل لك عندئذ .

وكان هناك فارسان يقتربان من القمة ، احدهما في الاربعين منعمره، والثاني دون العشرين ، جميل الطلعة رشيق القوام ، نبيل المظهر بكل ما في الكلمة من معنى .

وكان رئيس النبلاء الذين هربوا من باريس لا يزال يحاور نفسه ويخاطب العاصمة التي تحدته وطردته .

وكان يقول حين اقترب منه الفارسان :

ــ لقد اعتزلني الجميع ، فمن يتولى نصرتي الآن بعد فراري ؟

وصاح اصغر الفارسين ، بصوت عال :

— انا ...

فاجفل رئيس النبلاء ، والتفت الى الفتى ، فلما شاهده ظهرت البغتة على وجهه وقال وهو لا يصدق عينيه :

— من ارى .. اهذا انت اخـي شارل .. بعثت حيـا .. وجئت تعذبني ؟

فأجابه الشاب :

— ما انا اخوك كما تتوهم .. ولكني شارل دي انجلوم ابن اخيك.

— اذاً فانت ابن (ماري توشيت) وابن شارل التاسع اخـي .. ما الذي تريده من هنري الثالث ملك فرنسا ؟

وكان هنري الثالث هذا هو الدوق دانجو الذي عرفناه في مغامرات باردايان السابقة ، والذي خلف شقيقـه شارل التاسع على عرش فرنسا بعد وفاته باسم هنري الثالث .

فقال الدوق دانجلوم :

— سأخبرك بما اريده ، لقد بلغت سن الرشد منذ اسبوع، وحدثتني امي على الاثر بنسبي وحسبي . ومن اكون .. وارتني رسم والدي شارل التاسع ، واخبرتني كيف مات معذبا شقيا ، وكيف دفعـوه الى اليـأس فالجنون .. فقررت المجيء الى باريس لاقول للدوق دي كيز :

« ايها الخائن المتمرد ماذا فعلت بملكك ومولاك » .

فقال هنري الثالث :

— سوف تجد الـدوق دي كيز في قصري في اللوفر ، هذا اذا لم تجده جالسا على عرشي .

ولم يجفل الشاب لما سمعه ومضى يقول :

— وجئت الى باريس لاقول لكاترين دي مدسيس :

— ايتها الخائنة التي تجردت من الرحمة والشفقة ماذا صنعت بولدك ؟

فقال الملك :

— قد تجد امي سجينة عند دي كيز .

ومضى الشاب يقول :

— وجئت ايضا لاقول لهنري الثالث ملك فرنسا :

— قابين .. ماذا فعلت بأخيك ؟

وهاج رفاق الملك لما سمعوا هذا الكلام وصاحوا :

— ليحيى الملك .. وليمت من يجسر على اهانته .

فتقدم رفيق الدوق دي انجلوم منهم وجرد سيفه ، وقد برقت عيناه وقال :

— دعوا الدوق يحدث عنه في شؤونه الخاصة ، او اضطر للتدخل بدوري .

وحاول الخمسة الانقضاض عليه ، ولكن الملك منعهم باشارة من يده ، فاغمدوا سيوفهم ، وصاح احدهم :

— سوف نلتقي بك في غير هذا المكان، الا اذا اردت اخفاء اسمك.

فقال الرجل ببرود :

— ليس هذا من شأني .. واذا كان يهمكم اسمي فهو الشفاليه دي بارداليان .

وسقط الاسم على الفرسان الخمسة سقوط الصاعقة .. وتمتموا يقولون :

— بارداليان ؟..

وتراجعوا الى مكانهم ، وقد ارجفهم الاسم واخافهم .

ومضى الملك يقول للدوق الشاب :

ــ لم يبق من اسباب شقائي ايها الشاب الا ان القاك في طريقــي ، بعد ان غادرت عاصمتي هاربا ، فاسأل اللـه في صلواتك ان انسى هذه الحادثة حين اعود الى مسلكتي .

ــ سوف تجدني عندئذ امام عرشك انتزع وشاحك الملكي واقول لــك :

ــ قايين ماذا فعلت بأخيك ؟

واما الآن فاني اتركك وشأنك واعفو عنك ، بعد ان فقــدت عرشك واصبحت مطاردا ، ولكني سأعود اليك حين تعود الى باريس .

وحاول ملك فرنسا ان يتكلم ، فانحبس لسانه عن الكلام .

وكان ان شاهد الفرسان القادمين من باريس نحــوه ، فانضم الى رجاله وفر هاربا .

★ ★ ★

نسي الدوق دي انجلوم نفسه .

ولم يعبأ بالملك الهارب ، ولا بالفرسان القادمين .

ومضى يتحدث الى نفسه بصوت منخفض :

ــ لقد جئتك يا باريس لانتقم .. ولكني اتيتــك ايضا لان الحب يدفعني اليك .. ولو ظلت (البنفسجة) في اورليان لبقيت فيها .. لان غرامي اشد من انتقامي .

وتقدم بارداليان نحوه يلمس ذراعه ويقول :

ــ تذكر يا مولاي اننا امام عرش خال .

فاجفل الدوق وقال له :

ــ هل تريد الاستيلاء على هذا العرش ؟

ـ نعم .. ولكنـــي لا اريـــده لنفسي .. فما يستطيــع عرش ان يحملني .. ثم ان لي كلمة اريد ان اقولها لشخص اسمـــه (مورفي) .. ولهذا تراني في سبيلي للبحث عنه .

ولم يدهش الدوق لما سمعه من بارداليان لقد كان يعلم عنه الكثير.. مما شاهده بنفسه او سمعه من والدتـــه واصدقائه .. فلاذ بالصمت لا يدري ما يقول لهول ما سمع .

وعاد بارداليان يقول :

ـ ان هنري الثالث لم يعد ملكا على فرنسا.. كما ان هنري دي كيز ليس ملكا على باريس ، واما هنري دي نافار فهو يحلق كالعصفور باحثا عن فريسته ، وكل هؤلاء الثلاثة كما تعلم يتنازعون تاجا واحدا ارجو ان أضعه على رأسك ، اكراما لأمك وقضاء لواجبي نحوها .

وشحب وجه الدوق .

ومضى خلف بارداليان في الطريق التي اندفع فيها .. وهو يقـــول لنفسه :

ـ لماذا لا يكون لي تاج اضعه فـــوق رأسك ايتهـــا البنفسجـــة الحبيبة ؟

وبدت على الاثر امام الفارسين فرقة من الفرسان تحـــاول الوصول الى قمة (شاليوت) .

وكان قائدها او الرجل الذي يتقدمها رجلا في الثامنة والعشرين من العمر ، مقطب الوجه في جبينه اثر جرح كبير ، جميل الطلعة ، تدل مخايله على النبل وكرم المشهد .

ولم يكن هذا الرجـــل غير هنري دي لورين ، الذي غلب عليه اسم الدوق دي كيز .

وبعد قليل توقف الدوق عن المضي في سبيله ، والتفت الى رجاله ، وقال :

ــ ارى الملك قد سبقنا ، ولا سبيل الى اللحاق به ، واعادته الى رعاياه .

فتقدم منه احد رجاله ، وقال له بصوت خفيض :

ــ ليعطني مولاي عشرة من الفرسان لاعيد الملك اليه حيا او ميتا

فقال الدوق له :

ــ هل جننت يا مورفز .. دعه يهرب فذلك خير لنا وله .

ثم التفت الى فرسانه يقول معتذرا :

ــ لقد قمنا بواجبنا ، وسوف نعود من حيث اتينــا .. ولكن من أرى ؟..

وكان الدوق قد شاهد مركبة تتقدم في طريق باريس ، وقد سارت مع الجواد الذي يجرها امرأة من النور القت قناعا على وجهها فلم يعــد يبين شيء من ملامحها ، فاقترب منها الدوق يريــد ان يسألها عن شأنها ، فسمع صوتا عذبا رخيما يغني داخل المركبة على انغــام القيثارة ، فاصفر وجهه وارتعش ، وقال لنفسه :

ــ ويلاه ماذا اسمع .. ان الصوت صوتها بالتأكيد .

ثم التفت الى المرأة المقنعة يسألها فلم تجبه ، وعندئذ خرج رجل من المركبة ، وحنى رأسه امام الدوق ، فعرف منه بالجودير ، فسأله عن المرأة المقنعة التي لا تتكلم ، ولا تجيب على سؤال ؟.

فاعتذر النوري بأنها مجنونة خرجت من السجن مؤخرا ، وقد اخفت وجهها عن الناس خجلا ، ولكنها ماهرة بالتنجيم ، فهل تريد منها ان تخبرك بطالعك ؟

فرفض الدوق ذلك ، وسأل النوري عن شأنه ، واين هو ذاهب .

فأخبره انه ذاهب الى باريس ليعيش من شعوذته ، فهو يمشي على النار ويبتلع السيوف ، ويرقص على الحبل .. وعرض عليه ان يريه العابه. فرفض الدوق وسأله فيما اذا لم يكن في اورليان منذ اشهر ثلاثة ، فأجاب بالايجاب ، وانه كان فيها مع جوقته . وفيها البنفسجة وهي المغنية الحسناء التي تحرك بصوتها القلوب .. وتفتن النساك بجمالها البديع .

واسرع ينادي البنفسجة .. فلما شاهدها الدوق ادرك انها الفتاة التي فتنه جمالها في اورليان ، ومضى ينظر اليها بقسوة ولذة، فهربت الفتاة من نظراته ، وتعلقت بالمجنونة ، تقول لها : انه الرجل الذي شاهدته في اورليان وهو الآن يتبعني الى هنا .

فهوّنت عليها المجنونة الامر ، وقالت لها :

ـ اني سأموت قريبا ، وعسى ان يرسل لك الله من يحميك .. واني لا ازال أؤمل بذلك الفتى خيرا ، فقد قرأت في وجهه آيات الحب الصادق الطاهر .

وكان ان اعطى الدوق النوري بعض المال وامره ان يكون في ساحة الاغتصاب غدا ، فحنى النوري رأسه ، وعاد الى مركبته وهو ينظر الى البنفسجة نظرة منكرة ويقول في نفسه :

ـ لقد حانت ساعة الانتقام .

★ ★ ★

جلست امرأة في قاعة بديعة الرياش على كرسي من خشب الابنوس المزين بالرسوم الجميلة .

كانت آية في الجمال والجلال ، كما بدت في عينيها امارات الجرأة والعزم والقيادة .

واقبل على القاعة رجل ركع امامها كأنما هي ملكة من الملكات •
وقالت المرأة للرجل :
ــ لقد اصدرت اليك ايها الكردينال امرا فما عليك الا الامتثال •
فحنى الكردينال رأسه وقال :
ــ اني فاعل •
وكانت هذه المرأة هي الاميرة فوستا سليلة ليكريس بورجيا امــراء روما وحكامها •

وقد ذهب الرجل الذي نادته بالكردينال ، الى النافذة المشرفة على ساحة الاغتصاب فرأى في الجهــة اليمنى منها مركبة النــوري بالجودير تدخل الساحة •

ورأى الى اليسار جماعة من النبلاء بينهم الدوق دي كيز•• المسيطر على باريس في هذا العهد ، يمر به الناس فيحنون رؤوسهم وهو في شاغل عنهم ينظر الى سايزين النورية ، والى بالجودير الذي كان يعلن للناس عن ألعابه وخزعبلاته •

والتفت الكردينال الى الاميرة فوستا وقال :
ــ لقد اتوا •
وتقدمت فوستا نحو النافذة •
كان بالجودير حين رأى دي كيز يقتــرب منه قد صــاح ينــادي البنفسجية •
فغادرت الفتاة المركبة مضطربة قلقــة ، ونظرت فوستــا عندئذ الى دي كيز نظرة هائلة وقالت :

ــ لقد اصبحت في قبضة يدي ، فأنت ستغــدو ملك فرنسا ، وانا اريــد ان اكون ملكة فرنسا ايضا ، ولن يضيــق رأسي عن الجلوس على عرشين عرش فرنسا وعرش ايطاليــا •• اللذين سأجعلك بواسطتهما ملك

العالم .. فليمت والحالة هذه كل من يقف في طريقي .. لتمت امرأتــك كاترين دي كليف ، ولتمت هذه الفتاة النورية التي تعبدها .

ثم التفتت الى الكردينال وقالت له :

ــ انظر الى هذا الرجل الذي ، عقدنا عليه آمالنا ، ورشحناه ليجلس على عرش فرنسا ، اتراه يفكر بالعرش ويفكر بالوفاء لتعهداته ؟! ابدا .. انه منذ ثلاثة اشهر ومنذ شاهد هذه النورية في اورليان ، لا يكاد يشاهد في الدنيا غيرها .. فاذا لم انتزع هذا الحب من قلبه فقدناه .

« لقد أذعنــا في العــالم خبر سقوط أسرة فالوا ، وبات النــاس جميعا يتطلعون اليــه ليروا ما يكون منه ، فما ترى الناس يقولــون لو شاهدوه في هذا الموقف امام مركبة هذا المشعوذ ، يكاد يجثو تحت قدمي هذه الفتاة التي يدعونها البنفسجية .

فقال الكردينال :

ــ ولكنها مسكينة لا ذنب لها ولا جريرة .

فقالت :

ــ ان الشفقة ضعف لا يجب ان يتعلق بها قــواد الشعوب ، اذهب الى النوري واتفق معه ليأتي الى قصري مع البنفسجية هذه .

فاضطرب الكاردينال وقال :

ــ لا بد انك تريدين قتلهــا .. افعلي ما تشائين ، ولكن لا تطلبين مساعدتي بهذا الامر . فانت تعرفين اشفاقي على الفتيــات اللاتي يكن في مثل هذا العمر .

فلم تبال فوستا باعتراضه .

وقالت له :

ــ أريد ايضا ان تبلغ كاود .

ـ سيدتي .. اتعنين كلود الجلاد ؟. اتريدين ان اكلم هذا الجلاد الذي انتزع نفسي بانتزاع ...

وصمت ..

فقالت :

ـ كفى ايها الكردينال .. واريد ان يتم كل هذا في الساعة العاشرة من مساء هذه الليلة ، كما اريدك ايضا ان تبعث بهذه الرسالة الى الدوق دي كيز .

وغادر الكردينال فوستا الى ساحة الاغتصاب فيه اكان الدوق دي كيز يتقدم نحو (النوري) ويطلب منه ان يدعو البنفسجية للغناء حتى لا يفطن الناس الى غرضه ، وعليك في الوقت نفسه ان تنفذ اوامري التي سأبعث بها اليك مع رسول خاص .

فقال النوري :

ـ اني مستعد لتنفيذ كل ما تطلبه مني يا سيدي .

ونادى النوري البنفسجية ..

غادرت الفتاة المركبة فلم تشاهد الدوق دي كيز ، وانما رأت شابا جميل الصورة يتقدم نحوها ، ولم يكن هذا الفتى غير الدوق دي انجلوم ابن شارل التاسع .

وفيما هي تنظر اليه سمعت صوتا هائلا يصدر من المركبة ، فعرفت في الصوت صوت امها التي كانت في المركبة معها ، فأسرعت اليها ، وهي تقول :

ـ رباه انه صوت امي .. وهي تموت .

ولكن النوري غضب لتأخر البنفسجية ، وقا للجمهور الذي احتشد حوله :

ـ سأذهب لآتيكم بها .. فيما تقـوم المرأة المقنعـة باستكشاف طالعكم .

وكانت هذه المرأة المقنعة قد جمدت في مكانها لما شاهدت الكردينال فرنيز يتقدم نحو العربة للتحدث الى النوري .

وكذلك دهش الكردينـال عند رؤيتها ، واخذ يحـدق النظـر في عينيها .. وهو يرتعش ويضطرب .

واما البنفسجية فقد ركعت امام امهـا التي كانت تحتضر ، باكيـة تضرب كفا بكف ، وهي لا تدري ما تفعل .

ـ يجب ان تعلمي يا صغيرتي اني لست أمك .. وكذلك (كلود) فانه ليس بأبيك .

وظنت الفتاة ان أمها ـ او من تظنها أمها قد فقدت عقلها ـ .

ومضت المرأة تقول :

ـ هل تريدين معرفة والدك ؟ اتريدين رؤيته ؟.. اذن انظري .

وبذلت جهدا عنيفا ، لتدلها على الشخص الذي كانت تنظر اليه .

وكان ان وصل النوري في هذه اللحظة هائجا ساخطا .. وقبض على كتف البنفسجية محاولا جرها الى الخارج .

ولما صاحت المرأة المحتضرة تقول :

ـ انظري يا صغيرتي ..

ازداد هياجه ، وهجم على المـرأة فوضع احدى يديـه على فمها ، وضغط بالاخرى على عنقها .

ولكن المرأة دافعت عن نفسها ، ومدت يدها تشير الى الكردينـال فرنيز والد البنفسجية ، لتعلـم هذه انه والدها .. ولكن الفتاة لم تفطن الى اشارتها .

فقد كانت تحاول الوقوف على قدميها ، بعد ان دفعها النوري الى

الارض ، فلما وقفت كانت المرأة قد ماتت ، فحاولت الاقتراب منها ، فصاح بها النوري لتخرج الى الناس ، فلم تفعـل ، وركعت امام المرأة تبكيهـا وتندبها •• بعد ان اصبحت يتيمة لا اب لها ولا ام •

وعاد النوري يسألها ان تخرج وتغني للناس ، وهي تمانع ، وتصيح:

ــ كيف استطيع الغناء ، وامي ميتة امامي •• اقتلني فذلك خير لي•

فقال لها النوري وقد استشاط غيظا :

ــ كيف اقتلك وانا محتاج اليـك •• ولكن انذرك بأنـك اذا لم تخرجي للغناء امام الناس ، فاني سوف اجلد امك بالسوط •

سألت الفتاة سايزيما المقنعة ان تدافع عن امها الميتة ، فلم تفعل هذه شيئا ، لانها في الواقع فقدت عقلها منذ زمن بعيد ، واثر صدمة عاطفيـة عنيفة •

وقالت للبنفسجية :

ــ لقد فقدت عقلي هناك، في الكنيسة الكبرى، وعليك ان تحذري الكردينال ، فهو سارق القلوب •

وغادرت البنفسجية المركبة لتغني امـام الناس ، بعد ان شاهـدت النوري يرفع سوطه ليضرب امهـا الميتة ، فلما خرجت نظر اليها بلجودير نظرة منكرة وقال :

ــ اخرجي يا ابنة الجلاد الى الفخ الذي نصبته لك ، فان دي كيز ينتظرك ، وسيدنس عرضك غدا فتصبحين من المومسات ، وعندئذ سأذهب الى ابيك كلود الجلاد ، لاخبره بمصيرك •

★ ★ ★

اثار بكاء الفتاة وهي تغني قلب الدوق دي كيز ، فاقترب منها يسألها عن سبب بكائها ، فذعرت منه وردته •

وشاهد الدوق دي انجلوم هذا المشهد ، فمد يده الى حسامه وهمّ بالتقدم نحو الدوق .

ولكنه جمد في مكانه لما سمع صوت الطبـول ، وشاهد فرقـة من حراس الملك بقيادة كريلون يتقدمون نحو الساحة .

وصاح الناس في هذه اللحظة :

— ليمت حرس الملك .. القوهم في النهر .

فتقدم عندئذ الدوق دي كيز نحو (كريلون) ، فيما اسرع الدوق دي انجلوم نحو البنفسجية .

وقال لها :

— لماذا تبكين ؟. ألعـل هذا الرجل — واشار الى دي كيز — قد ابكاك ؟

فقالت :

— لا .. وانما ابكي امي .. التي ماتت منذ لحظات .. ثم يكرهني النوري على الغناء امام الناس .

وثار الدوق لما سمع .. وعمّ الساحة صمت رهيب ، واخذ الجميع ينظرون الى الدوق دي كيز وكريلون ، وهما يتحدثان .

وأمسك الفتى عندئذ بيد البنفسجية ، وسار بها نحو المركبـة حيث ركعت امام الميتة ، وركع الدوق معها ، ثم غادرها الى احد باعة الزهور ، فاشترى بعضهـا وغطـى بها جسم الميتة ، فاغرورقت عينا الفتـاة شكرا وامتنانا ..

وقال الدوق بعد ذلك يخاطب الفتاة :

— ليس هـذا المكان بصالـح لك ، وسأحضر غدا لاتحـدث الى المسؤول عنك .

فقال النوري :

ـ اني مستعد للاستماع الى حديثك ساعة تريد •

فقال الدوق :

ـ حسنا •• انتظرني في فندق (الامل) غدا صباحا •

ومضى الدوق بعد ان اطمأن على البنفسجية ، الى حيث كان الدوق دي كيز واقفا يتحدث الى قائد حراس الملك ، وهو يمني نفسه بالانتقام منه ، فشيعه النوري وهو يقول :

ـ تعال غدا ايها الابله ، ولكنك لو علمت بمصير البنفسجية القريب لما صبرت الى الغد •

فلما استدار نحو اليمين ، ابصر الكردينال يقترب منه ويسأله فيما اذا كان هو المسؤول عن البنفسجية ، فظنه رسول الدوق دي كيز الذي وعده بارساله •

فأجابـه :

ـ نعم يا سيدي •• واني رهن اشارتك •

فقال الكردينال :

ـ عليك ان تذهب بهذه الفتاة في الساعة التاسعة من هذا المساء الى منزل منعزل يقع خلف نوتردام ، له باب من الحديد ، ويقوم على ضفـة النهر •

ـ سأكون هناك في الوقت المعين •

وعندئذ سأله الكردينال عن المرأة المقنعة •

فقال النوري :

ـ انها نورية من قبيلتي •

ـ ما اسمها ؟

ـ سايزيما •

ــ اليس لها غير هذا الاسم ؟

ــ كلا يا سيدي .

فاشرق وجه الكردينـــال ، كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن صدره ، ثم مضى في سبيله لتسليم رسالة فوستا الى الدوق دي كيز .. في اللحظـة نفسها كان فيها الدوق دي انجلوم يتقــدم نحو الدوق ايضا .. وهو في اشد حالات الغضب والحقد .

★ ★ ★

- ٢ -

المفاجأة

ضاق صدر الشاب حين شاهد الدوق يحـاول العبث بالفتـاة التي يحبها ، واستبد به الغضب لما علم في قرارة نفسه ان من عادة الدوق اللهو بالفتيات البائسات لغاياته الشريرة الدنيئة .

واحس بيد تقبض على ذراعه .

والتفت ليرى من يكون الرجـل .. فاذا به يشاهـد بارداليان الى جانبه فأشرق وجهه ، وفرح فرحا عظيما وصاح يقول :

ـ الشفاليه دي بارداليان .

فقال بارداليان :

ـ نعم هذا انا ايها الصديـق .. لقـد وصلت في الوقت المناسب كما يبدو .. فما الذي تريد ان تفعلـه .. اتريد مهاجمة الدوق وهو في وسط قواته ، والشعب يؤيده ويهتف له ؟

وكان بارداليان وهو يحدثه يدفعه بعيدا عن الناس .

فصاح شارل بلهجة القانط يقول :
— باردالیان اني ارید ان اقوله له كلمة صغيرة فقط •
ولكن باردالیان لم يقنع ، واخذ يدفعه بعيـــدا ، فقال له الـــدوق باصرار :
— اذهب انت بعيدا يا باردالیان اذا شئت •• اما انا فأريد ان اكلم هذا الرجل •
وهز باردالیان رأسه في قنوط وقال :
— اذا كان هذا ما تريده فهلم بنا اليه •• فما كنت لاتركك وحدك•
واخذ الرجلان يخترقان صفـــوف الجماهير التي كانت تضيـــق بها الساحة ، حتى اقتربا من الدوق فوجـــدا (كريلون) قائـــد حرس الملك يتحدث معه •

وكان كريلون هذا رجلا باسلا ، قرر اللحاق بالملك هنري الثالث لما علم انه غادر عاصمته باريس ، فغادر الثكنة على رأس ثلاثة آلاف جندي•• فلما شاهده الناس وعلموا انه في سبيله للحاق بالملك انهالـــوا عليه وعلى رجاله بالشتم ، والسب ، فلم يأبه لهم ، حتى التقى بالدوق دي كيز •

فسأله الدوق اذا كان يريد تسليم اللوفر اليـــه ، وهو قصر الملك ، فرفض القائد هذا لطلب ، وقال للدوق :
— لقد اقسم كلانا يمين الطاعة والوفاء للملك ، وانا لن احنث بيميني هذا وسوف الحق بالملك ، فاذا حاول رجالك منعي ، فاني سوف اخترق صفوفهم بسيفي •

وجرد كريلون سيفـــه ، وعندئذ خـــرج رئيس حراس الملك من بين الجنود ، وكان يقف خلف قائده وقال يخاطب الدوق دي كيز :
— اننا لن نخرج خلف الملك ولن نغادر باريس •
فأجفل كريلون لعصيانه ، وقال له :

ــ عدد ايها الكولونيل الى فرقتك او يقتل احدنا الآخر •
فلم يجبه الكولونيل وقال للدوق :
ــ اني اسلم يا مولاي •• وانضم اليك والى رجالك •
وفي هذه اللحظة ارتفع صوت في الفضاء اجفل له النـاس ، فوجـم الدوق دي كيز ، وكان يحاول الجواب على كلام رئيس الحراس ، وجمد كريلون في مكانه ، وكان يريـد مهاجمة الكولونيل •• وثبـت الحراس والجنود في مكانهم وكانوا في طريقهم للاستسلام •
وكان الصوت يقول :
ــ ايها الخائن انك تستسلم لخائن مثلك •
وضع دي كيز يده على قبضة سيفه ، وراح يدور بعينيـه باحثا عن هذا الوقح الذي تجرأ على اهانته وهو بين رجاله ، فشاهد فتى يتقـدم نحوه ••• دافعا رئيس الحرس من طريقه باحتقار بالغ ثم تقدم من الدوق يقول له :

ــ يا هنري دي لورين ، يا دوق دي كيز يا قاتل ابي ، انك خائن ومتمرد ••• وانا شارل دي انجلوم ابن شارل التاسع ملك فرنسا اصمك بهذه الوصمة الشائنة وادعوك الى المبـارزة بالسيف او بالخنجر في اي مكان تختاره •

هجم عشرون نبيلا من اتباع الدوق على الشاب بالخناجر يريدون قتله ، ولكن الدوق ردهم باشارة من يده ، وقال له والغضب يتطاير من وجهه :

ــ اني اقبل مبارزتك يا ابن شارل التاسع ، ولكن اعرفه ان الجبن عريق في عائلتكم •• تتوارثونه ابا عن جد •• ولهذا سأحتفظ بك ريثما اتفرغ لهذه المبارزة •
فدنا منه باردليان في هذه اللحظة وقال له :

ــ لعلك نسيت نفسك ومن تكون ايها الدوق •• فقد اجتمعت اليك منذ خمسة عشر عاما في قصر الاميرال كوليني حين كنت تحاول التمثيل به بعد قتله فصفعتك على وجهك ، فانت تلقب بالمصفوع بعد هذا التاريخ•

ارتجف الدوق من الغضب ، وضج الناس لما سمعوا •• وصاح الدوق :

ــ اهو انت ايها التعس •• اليَّ ايها الجنود ، واقبضوا على هذين الرجلين •• وحاولوا ان لا تقتلوهما لاني اريدهما حيين سالمين •

هجم جماعة الدوق كالكواسير •

واسرع رئيس الحرس يضع يده على كتف بارداليان ، فكان سيف بارداليان اسرع الى رأسه من رد الطرف فسقط صريعا لساعته •

وهاج الناس على الاثر هياج المجانين •• وفوستا واقفة في نافذتها تشاهد ما يقع امامها في الشارع •

ورد بارداليان الناس عنه وعن صديقه الدوق بحسامه ، وتقدم نحو كريلون •

ــ سلمني هذين الرجلين فاسمح لك بالخروج من باريس •

ورفع بارداليان حساما عاليا وصاح بالحرس :

ــ ايها الحراس •• انشدوا نشيد الملك •

وصاح الحراس وقد اثارتهم جرأة بارداليان ، فأخذوا ينشدون نشيد الملك •

ــ الى الامام ايها الابطال •

وجمد الشعب في مكانه فلم يعد يعرف افراده ماذا يفعلون •

لقد كانوا باكثريتهم من حزب دي كيز وانصاره ، ولكن جرأة بارداليان وحماسة حراس الملك ، هزت عواطفهم فوقفوا لا يتحركون في مكانهم ، ولا يحاولون الوقوف في وجه افراد الحرس الملكي الذين كانوا

يتقدمون في الشارع وطبولهم تدق وموسيقاهم تصـدح ، بخطى ثابتة ، وقلوب قوية .

وهمّ دي كيز ان يتبع بارداليان ورجال الحرس ويناز لهم في معركة حاسمة ، ولكن رسالة وردته من (فوستا) في هذه اللحظة ، ما كاد يقرأها ، حتى اخذ يضغط عليها بيديه ، ثم قال لرجاله :

ــ هيا بنا الى القصر .

وقد نسي بارداليان وانجلوم ، ونسي البنفسجية الحسناء ، ولم يعد يهمه الا ما ورد في الرسالة الغريبة التي وصلته .

★ ★ ★

واما بارداليان وانجلوم وكريلون ورجاله ، فقد مضوا في طريقهـم حتى خرجوا من احد ابـواب باريس ، فودع عندئذ الصديقـان القائد الباسل ، الذي كان يريد اللحـاق بالملك ، ولكنـه حين ضغط على يد بارداليان قال له وهو معجب بشجاعته وبأسه :

ــ تعال معي الى الملك فيعينك كولونيلا .

فأجابه بارداليان وهو يضحك :

ــ لقد عينت نفسي مارشالا فكيف ارضى بهذه الرتبة المتواضعة .

فقال كريلون :

ــ لو كان عند الملك عشرة مثلك لعاد غدا الى عاصمته التي غادرها البارحة هاربا .. ماذا تدعى ايها الباسل ؟

ــ شفاليه دي بارداليان .. اطلب من الملك ان يذكرني في صلواته حين يعود ظافرا الى باريس .

وبعد ان ودع كريلـون الصديقين : تأبط بارداليـان ذراع الدوق وقال له :

ــ هلم بنا نعود الى باريس من باب مونمارتر ، ونذهب الى فندق دفينير ، حيث نشرب كأسا من الخمرة ، فان صاحبته صديقة قديمـة لي ولابي .

وفي مساء هذا اليوم نفسه جاء (بلجودير) بأربعة رجال لنقل الميتة الى لحدها ، ثم دعا البنفسجية للذهـاب معه حيث تودع امها الـوداع الاخير .

ولم يفطن بلجودير وهو يمضي مع البنفسجية الى ان رجلا كان يتأثر خطواته ، وقد ظهرت امارات الاشفاق على وجهه وهو يقول :

ــ سيري ايتها الضحية الى حيث يقودك هذا الجلاد .. والى حيث تنتظرك فوستا التي لا تعرف الرحمة ، ولم يبق عليّ الآن الا انذار الجلاد والويل لي من هذه المهمة .

وكان الجلاد واسمه (كلود) .. كاسف الوجه حزينا في هذه اللحظة، يفكر في الفتاة التي تبناها ، بعد ان انقذها من الموت عندما خلقت لسنوات خلت ، وتعهدها بالعناية والعطف ، ثم اختفت من منزلـه دون ان يدري سببا لاختفائها .

ونظرت اليه العجوز التي كانت تخدمه وهي حزينـة يائسة ، فقد رفض ان يأكل ومضى يذكر فتاته بعبارات تبعث على الحزن والاسى . كان يقول :

ــ اين انت يا ابنتي .. ان رسمك لن يمحى من بالي .. لقد قتلت كثيرا من الناس ، حتى بات يخاف ويملك الذعر الجميع عند ذكر اسمي .. ولكن هذا كله لم يؤثر عليّ بقدر ما اثر علي اختفـاؤك .. منذ ثمانيـة اعوام .. اين انت ايتها البنفسجية الحسناء .. لقد كنت عزائي في مهنتي

•• وكانت سعادتي ان ازورك مرتين في الاسبوع فأحسب هذه الزيارة من اعظم اعيادي •

وتذكر ذلك اليوم المفجع •• يوم اختفت البنفسجية من البيت وكيف راح يبحث عنها في كل مكان فلا يجدهـا ، وكيف عـاد الى البيت قانطا يائسا •

سأل الجيران عنها •• فلم يعـرف بخبرها احد ، وان قالـوا انهم شاهدوا طائفة من النور تمر امام المنزل •

وفيما هو في شأنه هذا سمع طرقا على الباب •• فقال في نفسه :

ــ من عسى ان يكون الطـارق •• ان احدا لم يزرني منذ ثمانية اعـوام ••

★ ★ ★

كان هذا الخاطر ما يبرح يراود ذاكرة كلود الجـلاد ما تقدمت به الايام ، وتقطعت السنون ، فلما عرضت عليه العجوز التي تخدمه الطعـام أبى أن يأكل •

وقرع الباب في هذه اللحظـة فتحير (كلود) •• وسأل نفسه من يكون الطارق ، وهو لم يزره احد منذ ثمانية اعوام ، ذلك ان الناس كانوا يخافونه ويلعنونه ، واذا مروا بالقرب من بابه جروا مسرعين كأن الشيطان يطاردهم •

وبعد لحظات من الحيرة امر المرأة بفتح الباب ففعلت ، فاذا برجـل مقنع قد تملكه الوجوم والاضطراب حين مثل امام الجلاد فسأله هذا عن شأنه ، فقال :

ــ لقد جئت اطلب مساعدتك في شأن يتعلق بمهنتك•

فاهتز (كلود) لسماعه هذا الكلام ، واجابه :

ـ لقد اعتزلت هذه المهنة منذ اعوام ثلاثة ، ولست اريد العـودة اليهـا •

فأجابه الرجل :

ـ لقد ارسلني اليك من لا تستطيع لامره دفعا •

ثم أراه خاتما نقشت عليه رموز سريـة ، فارتعش كلود حين شاهد الخاتم ، وانحنى باحترام ، وقال :

ـ مرني بماذا تريد •

ـ عليك بالذهـاب الى المنـزل الكائن وراء نوتردام فان التنفيذ سيكون في الساعة العاشرة •• ولا بد ان ترى وجهي الذي يهمـك ان تعرفه ، لاني بعد ان انتهيت من مهمتي ، يهمني ان تعرف من انا •

وازاح القناع عن وجهه ، فذعر الجلاد وصاح :

ـ فرنيز •• والد الفتاة •

ـ نعم والد الفتاة التي اختطفتها مني ، نعم •• انا الرجـل الذي لعنك والذي لا يزال يلعنك •• والآن اخبرني عن الحقيقة •

فتردد (الجلاد) مليا ثم قال :

ـ لقد اجبتك على سؤالك منذ خمسة عشر عاما •• لقد ماتت الطفلة بعد ان اخذتها من امها بعد شنقها ، بثلاثة ايام •

ورفع (فرنيز) رأسه الى السماء ثم مضى في سبيله ، فأسرع الجلاد خلفه يسأله من يكون الضحية ؟

فأجابه : انها فتاة صبية •

فارتعش كلود حين علم انه مكلف بقتل فتاة في مقتبل العمر •

وتذكر الفتاة التي تبناها •

ومسح العرق الذي اخذ يتصبب على وجهـه ، فيما مضى فرنيز في

سبيله ، وتبعه الجلاد بعد قليل متوجها نحو منزل (فوستا) ، وهو يقول في نفسه :

ــ انها ستكون آخر ضحاياي •• ولن اعود الى مثلها ابدا ••

بعد ان دفن بلجودين المرأة الميتة ، التي كانت تعتقد البنفسجية انها امها ، اخذ بيدها ، فمضت معه ساهية حزينة ، لا تدري اين تضع قدميها الصغيرتين ، تفكر في امها التي فقدتها ، وفي الشاب الجميل انجلوم ، الذي شاطرها حزنها ، وحنا عليها •• حتى وصل بها النوري بلجودير الى باب منزل قديم طرق بابه ، ففتح له في الحال •

فصاحت البنفسجية :

ــ رباه ، اني خائفة •

ولكن بلجودير دفعها الى الداخل ، فاذا بها ترى نفسها في ردهة واسعة خفيفة النور ، قد وقف فيها رجلان مقنعان مسلحان بالخناجر •

وقال بلجودير يخاطب احد الحارسين :

ــ اني ادعى بلجودير ، وقد طلب مني جلب هذهالفتاةالىهذا المكان •

فقال له الحارس :

ــ لقد احسنت •

وتقدم الحارس الآخر من البنفسجية ، فألبس رأسها كيسا من الحرير الاسود ، وربط فمه عند عنقها ، فاستولى على المنكودة رعب عظيم، واحتبس لسانها عن الكلام ، واصيبت بما يشبه الكابوس •

فلم تشعر الا وهي محمولة الى حيث لا تدري •• فيما اعطى رفيقه لبلجودير كيسا من الدنانير •

وهو يقول له :

ــ هذا جزاؤك .. فاذهب في سبيلك ، واحذر ان تتكلم لاحد عما فعلته ، ان ترود حول هذا المنزل ثانية .

فمضى النوري شاكرا مسرورا ، وهو يظن انه حمل البنفسجية الى منزل الدوق دي كيز .

ولما دقت الساعة العاشرة ، كان كلود الجلاد في طريقه الى هذا المنزل القديم .

فلما وصل الى بابه طرقه ، ففتح له احد الحارسين ، فلما شاهده عرفه ، واشار اليه ان يتبعه .

ويبدو ان كلود كان يعرف هذا المنزل قبلا ، ولهذا لم تبد عليه امارات الدهشة لما كان يراه في طريقه فيه .

ذلك ان هذا المنزل الذي كان يبدو انه قديم من الخارج ، كان بالتأكيد رائعا مثيرا من الداخل ، يشبه القصور الانيقة للاباطرة والملوك .

اجتاز به الحارس الى قاعة واسعة نصب في وسطها عرش من الذهب ، وزينت جدرانها بأبدع الرسوم والتصاوير .. ثم مضى به الى قاعة اخرى ، حتى وصل به الى غرفة في آخر المنزل باردة خالية من الاثاث ، يشاهد المرء فيها سلاسل مشدودة الى الجدران بحلقات غليظة من الحديد .

ولم يكن في هذه الغرفة الرهيبة ، سوى امرأة تلبس السواد ، قد غطى رأسها بقناع اسود ، فلا يشاهد المرء غير عينيها ، وفي اصبعها خاتم يشبه الخاتم الذي حمله (فرنيز) اليه حين طلب منه المجيء الى المنزل .

غير ان الفرق بين الخاتمين كان ظاهرا للعيان ، فخاتم (فرنيز) كان من الحديد ، وخاتم هذه المرأة كان من الذهب الخالص .. وقد رصعت الحروف المنقوشة عليه بالماس .

وكانت هذه المرأة هي (فوستا) ، التي شاهدناها في ساحة الاغتصاب والتي كان ينظر اليها انصارها ، نظرات القداسة .

ركع الجلاد حين شاهدها ، وحنى رأسه احتراما .
فقالت فوستا له :
ـ ايها الجلاد الذي اقسم لنا يمين الطاعة ، لقد حكمنا على امرأة تهدد مشروعاتنا المقدسة ، فادخل الى قاعة الاعدام ونفذ الحكم .
فقال الجلاد وهو يضطرب من الخوف :
ـ اسمحي لي بكلمة يا مولاتي .
فلما اشارت له ان يتكلم .
قال :
ـ اني منذ سنوات لا انام الليـل ، واذا اردت نوما تمثلت امامي اشباح الذين قتلتهم .. ولقد اقسمت لك يمين الطاعـة منذ عامين ، زرت هذا القصر خلالهما ثلاث مرات ، والقيت الى نهر السين بالجثث الثـلاث التي نفذت فيها حكم الاعدام .
وحين مرضت رفض الاطباء عيادتي .
والتمست رأفة مائة كاهن ، فما رضي احد منهم ان يباركني .
ولم اقبل بالعمل لك الا بعد ان وعدني رسولك بأن تمنحيني بركتك ، فرضيت وامضيت الاتفاق ، وكل ما ارجوه اليوم ان تكون هذه الزيـارة لقصرك آخر زياراتي .. لاني لم اعد اطيق صبرا على هذه الحالة .
وعدته فوستا بأن يحله من خطاياه كردينال كبير ، لا كاهن بسيط .
وامرته ان يمضي ، بتنفيذ الامر الذي اصدرتـه له ، فسرّ الجـلاد كلود بهذا الوعد ، ومضى الى الغرفـة المختصة للاعـدام ، فيما تقدمت فوستا نحو الجـدار القريب ، لتشاهد ما يجري في غرفـة الاعـدام ن ثقب فيه .
كانت الغرفة تقع فوق نهر السين ، ولم يكن فيها نوافذ ، ولا نور الا مصباح خفيف لا يكاد يضيء شيئا .

وكان في وسط ارضها باب مقفل ، في وسطه حلقة مربوطة بحبل متصل بالسقف ، اذا فكت عقدت الحبل هبط الباب الى اسفل •• فسقط من فيه بعد خنقه الى النهر لتبتلعه امواجه •

فلما وقف الجلاد امام ضحيته ، وقد غطي رأسها بالكيس الاسود ، ذعر حين شاهد جمودها وعدم حركتها •• وسأل نفسه من تكون هذه الضحية ، وشعر بالعجز عن تنفيذ جريمته •

ثم ما لبث ان فكر بفتح الباب ، وترك الفتاة تهوي الى نهر السين ، لتموت وهي يغمى عليها ، بدلا من خنقها وقتلها •

وكان ان صحت الفتاة في هذه اللحظة ، واخذت تنادي اباها وامها ، وتقطع قلب الجلاد حين سمع صوتها •

وقال في نفسه :

ــ ما دامت قد عادت الى نفسها فلا بد لي من خنقها ، فانها قد تنجو من النهر ، فيما اذا القيتها حية فيه •

واخذ يفك عقدة الكيس الذي يغطي رأسها ، وبدا له الوجه الجميل بعد لحظات ، فلما شاهد الوجه ، صاح صيحة هائلة وقال :

ــ يا الهي •• هذه هي البنفسجية ابنتي •• وفتحت الفتاة عينيها في هذه اللحظة ، وعرفت في الجلاد والدها الذي تبناها •

فصاحت :

ــ أبي •• ابي كلود ••

وكاد يجن المسكين من هول هذه المفاجأة ، واخذ يبكي ويضحك في وقت واحد •

وعاد الى نفسه بعد قليل ، وحملها بين يديه ، ومشى نحو الباب •

وفتح الباب في هذه اللحظة ، وظهرت منه فوستا بملابسها السوداء ، ونظرت الى الفتاة نظرة ملؤها الفضول والاهتمام ، وهي تقول في نفسها :

ــ اذاً فهذه هي الفتاة التي التقطها الجلاد وتبناها بعد مقتل امها ، وهي ابنة الكردينال فرنيز .. اذاً لقد باتت تستحق القتل مرتين .
سألت كلود :
ــ ماذا تنتظر ؟
وزأر كلود زئير الوحوش ، وقال :
ــ انها يا سيدتي ابنتي ، وقد فقدتها منذ ثمانية اعــوام ، فدعيني اذهب بها .
فأجابته فوستا :
ــ ايها الجلاد .. ماذا يؤخرك عن تنفيذ الاعدام ؟
ــ وصاحت البنفسجية حين ادركت ان والدها ليس غير الجــلاد ، ولكن (كلود) طمأنها وهو يقول :
ــ لا تخافي ، فلن امسك ولن اكلمك ، اذا كان هذا يرضيك .
وتدخلت فوستا تقول :
ــ اما ان تنفذ الحكم فيها او تموت معها .
فقا لها :
ــ لا بد انك فقــدت عقلك .. اتطلبين مني قتــل ابنتي .. هذا مستحيل .. دعيني اذهب في سبيلي او تكون هذه الساعة آخر ساعاتك.
تناولت فوستا صفارة من الفضة ، وصفرت بها ، فأسرع الى الغرفة خمسة عشر رجلا من المسلحين بالغدارات والخناجر ، فأوقف كلود ابنتــه خلفه وتأهب لقتال هذا العدد من الرجال ، دفاعا عن صغيرته .
لم يتحرك الحراس بأمر فوستا لمهاجمته ، ولكنهم صوبوا بنادقهــم واطلقوا النار على الفتاة .
وكان كلود قبل اطلاق النــار قد قفز مع فتاته الى الباب المفتوح ، فلما انقشع الدخــان ونظرت فوستا الى ارض الغرفــة لم تجد كلود ولا البنفسجية ، فقد اختفيا ، فأدركت ان الجلاد قد القى بنفسه مع فتاته في النهر .

– ٣ –

السر الرهيب

كان الدوق دي انجلوم يحب باردالیان حبا عظيما ، ويقدر جرأته واخلاصه ، خصوصا بعد ان حدثته امه (ماري توشيت) عن اخلاصه لها .

وكيف دافع عنها وانقذها ، لما حاول الرعاع في باريس اعتراض مركبتها .

وازداد الدوق الشاب بباردالیان تقديرا واعجابا ، لما شاهده منه في ساحة الاغتصاب ، ووقوفه في وجه دي كيز واعوانه الكثيرين .

ولما عاد الى باريس ذهب به الى منزله فيها ، وحدثه بغرامه بالنفسجية ، وباردالیان يسمع له ولا يقاطعه ، حتى اذا انتهى الشاب من حديثه وسال باردالیان رأيه ، قال :

— رأيي ان تحبها وتدعها تحبك ، فليس في الحياة غير الحب .. الحب الحياة ، والحياة الحب .

وذهب كل من الصديقين الى غرفته ، فنام باردالیان نوم الاطفال ،

وقضى الدوق ليله قلقاً ينتظر طلوع الفجر ، ليذهب الى النفسجية ويشاهدها .

فلما كانت الساعة التاسعة ، غادر بارداليان المنزل الى فندق دفنير ، وهو الفندق الذي قضى فيه شبابه وصباه .

فلما وصل الى القاعة ، كانت صاحبة الفندق في المطبخ تراقب الطعام، وامامها كلبها ، ولم تكن هذه المرأة غير هيكيت امرأة صاحب الفندق الذي كان ينزل فيه بارداليان الاب وابنه ، وكانت قد اصبحت الآن في الثالثة والثلاثين من عمرها ، ولا تزال تحتفظ بجمالها وانوثتها .

وفيما هي تراقب الطعام ، سمعت عواء الكلب ، وقد شاهد صديقا قديما .

فاستدارت فشاهدت بارداليان ، فخفق قلبها فرحا واقبلت ترحب به، فضمها الى صدره وعانقها عناق الصديق القديم ، وعرف منها ان زوجها قد توفي ، واخذ الكلب على الاثر يدور حولهما ، ولم يكن غير (بيبو) صديق بارداليان القديم ، وقد تقدم في العمر وازداد نصحا .

وقالت هيكيت تسأله ، بعد ان قدمت له قدحا من الخمرة :

ــ اتذكر زيارتك الاخيرة لهذا الفندق ، منذ ثلاثة عشر عاما ، فقد كنت في ذلك اليوم حزينا منقبض الصدر ، ولكنك ابيت ان تخبرنا عن سبب حزنك .

فقال :

ــ لم يبق لي إلاك في هذا الوجود يا هيكيت .. لقد مات والدي بعد ان غادرنا باريس يوم مذبحة برتلماوس ، على اثر جرح اصابه ، فوق قمة مونمارتر ، كما فقدت لويزا بعد ذلك .

فقالت هيكيت بلهجة صادقة :

ــ هل هي لويزا دي مونتمورانسي ؟

ــ بل انها كانت تدعى لويزا دي بارداليان ، كونتس دي مارجنسي، لاننا تزوجنا بعد ذلك •

فقالت هيكيت :

ــ هل تعرضت لمرض ماتت به ؟

ــ لو ماتت بمرض لمت بعدها وانتحرت ، ولكنها ماتت مسمومة •

فدهشت هيكيت •• ومضى بارداليـان يحدثهـا ، كيف هاجمهـا (مورفر) عدوه خلسة وطعنها بخنجـر مسموم في صدرها ، فماتت بعد ثلاثة اشهر من هذا التاريخ •

ولهذا جئت الى باريس بحثا عن القاتل •• اكثر من مرة ، وفي كل مرة كان القدر يمكنه من الهرب والنجاة بجلده •

وقد طفت الارض بحثـا عنه ، وها قد عدت الآن الى باريس لعلي اجده فيها •

ولتعلمــي يا هيكيت اني كنت ابدا اتذكرك في اثنــاء طوافي هذا ، واتذكر طعامك الشهي الطيب •

قالت هيكيت :

ــ اذا كنت تذكرتني في بعض الاحيــان ، فقد كنت اذكرك دائمــا وابــدا •

وذهبت الى المطبخ تجهز له طعاما يحبه •

وصب لنفسه قدحا رابعا وهو يقول :

ــ اني اشرب نخبك يا مورفر •• لانه لا بد لنا ان نلتقي والويــل لك من تلك الساعة •

وفيما كانت هيكيت تجهز طعام بارداليان ، اقبل من البــاب الآخر للفندق اثنان من الزبائن ، فأوصياها على طعام ، فوعدتهما خيرا ، وذهبت بهما الى احدى الغرف وهي تقول :

ــ سوف احضر لكما ما طلبتماه قريبا يا مسيو مونيفيتر ، ويا مسيو مورفر •

ومضت تنقل الطعام الى مائدة بارداليان ، وفجأة اقبــل الدوق دي انجلوم ، مصفر الوجه حزينا ، يخبر صديقه باختفاء البنفسجية ، واختفاء النوري بلجورير ، التي كانت معه ، وقد سأل صاحب الفندق الذي ينزل فيه عنه ، فأخبره انه لا يعلم شيئا من امره •

واخذ بارداليان يلعن هذا الزمن الذي اصبح عبارة عن قتل وخطف وسرقة •• ثم من تكون هذه الفتاة الجميلة ليهتم الناس بخطفها •

وخطر له خاطر فسأل صديقه ، فيما اذا كان عنده اثر من آثار الفتاة• فأخرج الدوق منديلا وهو يقول :

ــ لقد التقطه البارحة من مركبة النوري ، ولا بد ان يكون لها •

فأخذ بارداليان المنديل ، وسأل صديقه ان يذهب لمنزله ، ويتركــه يبحث عن مكان الفتاة ، واقبلت هيكيت في هذه اللحظــة تحمل اطبــاق الطعام ، فلما شاهدت بارداليان واقفــا يريد الذهاب ، ذعرت ، وسألته عن السبب • فأجابها :

ــ لقد حدث ما ليس بالحسبان ، وسأعود برجلين لتناول طعامي • فسكتت ولم تحر جوابا •

وخرج بارداليان الى الطريق ، فشاهد رجلين تبدو امارات الجــوع على وجهيهما ، فدعاهما لتناول طعامــه ، بعد ان عرف ان احدهما يدعى كرواس ، والثاني بيكوسي •• وودع هيكيت بعد ان دفــع لها دينارين ، رفضت قبولهما ، فأصر عليها فأخذتهما ، وغادر الفندق يتبعه كلبه بيبو •

وجلس بيكوسي وكرواس وهما من عصابة بلجورير يلتهمان صحاف المائدة وهما لا يصدقان ، فيما ازيحت ستارة احدى نوافذ الفندق ، وظهر

خلفها وجه رجل كان يراقب بارداليان وقد اصفر وجهه من الحقد والخوف معـا .

ولم يكن هذا الرجل غير مورفر ، صاحب الخنجر المسموم ، قاتـل لويزا دي بارداليان .

★ ★ ★

عاد الدوق دي كيز الى قصره غاضبا ناقما بعد الرسالة التي وصلته من فوستا ، تقول له فيها ، ان امرأتـه عادت الى باريس ، وانها مع احد عشاقها في قصره .

وكان دي كيز كثير الكبريـاء ، وكانت كبرياؤه هذه ، تفرض عليه الكثير من اعماله ، ولم يكن الواقع يحب امرأته ، وكان يعلم انها تخونه . كما انه هو بدوره كان يخونها ، ولكنه كان يقتل كل عشاقها ، لان كبرياءها كانت تدفعه الى ذلك ، ويعز عليه ان يجرأ انسان على ان يمس امرأته ، او يقترب منها .

وكان آخر ما فعلـه ان بعث امرأتـه الى اللورين ، بعد ان كثرت فضائحها في باريس ، ومضى يتفرغ للعمـل في سبيل العرش الذي كان يريد الوصول اليه .

فلما وصلته رسالة فوستـا ، وفيها ان امرأته عـادت الى باريس ؛ اسرع الى قصره ، وقد استبد به الغضب ، لا يدري ما يفعل .

وكان قصره يشبه الحصون المنيعة ، وكان اول ما فعله ان استقبل رسول فوستا ، الذي نقل اليه كل ما يعرفـه عن خيانة امرأته وعاشقهـا الجديد .

وقد صرف اليـوم التالي ، يملي الرسائل ، ويمهد الطريق لبلـوغ

اغراضه ، فعين بودوانين كولونيلا ، وبيبي لكلرك حاكما لسجن الباستيل وارسل الى ام الملك ، كاترين دي مدسيس التي بقيت في باريس ، رغم الثورة ، وفرار ولدها من العاصمة .. كما كتب الى رئيس البرلمان ، يخبره انه سيزوره .

ولما اقبل المساء ، ذهب لمقابلة فوستا مع احد اتباعه .

فلما مثل امامها ارتعش واضطرب ، وسألها ان تقدم له البرهان على ان الكونت دي لوان هو عشيق امرأته .. ليذهب اليه ويقتله .

وقد ازداد حقد الدوق على الكونت لان هذا كان من انصار الملك لا من انصاره .

فقالت فوستا :

ــ سوف ابعث معك بشخص ، يذهب بك الى المكان الذي تستطيع فيه ان تتحقق من خيانة امرأتك .

وغادر الدوق قصر فوستا ، بعد ان حنى رأسه لها باحترام عظيم ، حيث ذهب به رسولها الى فندق (الآلة الهاصرة) ، وكان هذا الفندق مجاورا لقصر فوستا ، وقد بدأت نوافذه مقفلة ، كأن ليس فيه احد .

ولكن رسول فوستا طرق بابه بشكل خاص ، ففتح الباب ودخل الدوق .

وكان هذا الفندق تديره روسيت وبيكيت ، وهما من المومسات اللواتي انقذن بارداليان ووالده من سجن الباستيل ، كما تقدم في رواياتنا الاولى من هذه السلسلة .

وقد ذهبت (روسيت) و (بيكيت) .. بالدوق الى قاعة خالية ، مؤثثة بالاثاث الفاخر ، حيث سمع من القاعة المجاورة اصوات الضحك والتندر ، فأدرك الدوق ان هذا الفندق ليس غير مركز يجتمع فيه العشاق في غفلة من العيون .

دنت منه روسيت وقالت :

ــ اذا شاء مولاي فليتفضل بالدخول ليحل محل النديم الذي تأخر ولم يصل حتى الآن •

وقالت بيكيت :

ــ لقد اتفقوا رجالا ونساء ، على ان يرفعوا الاقنعة عن وجوههم في الساعة العاشرة •

وفتحت احداهن باب القاعة ••

وشاهد دي كيز امامه قاعة فيها اربعة مواقد تفوح منها رائحةالند• وفي وسطها مائدة مليئة بالفاكهة. تطوف الخادمات العاريات بكؤوس الخمرة على الحاضرين •

وعدّ الدوق الحضور فوجدهم تسعة ، اربعة رجال ، وخمس نساء• ولما اقبل الدوق هجمت عليه المرأة الخامسة ، اذ ظنته صديقها الذي تنتظره ، لانها لم تعرفه بسبب قناعه ، وجرّته اليها وهي تقول له :

ــ لقد تأخرت ايها الحبيب •

وحانت الساعة العاشرة ، واخذ النسوة يرفعن البراقع عن وجوههن، وهال الدوق حين شاهد اخته بينهن ، ونساء يعرفهن جيدا معها •

واخيرا عرف امرأته ، وعرف صديقها الكونت دي لوان ، فلما تأكد من الخيانة ، هجم على الكونت بخنجره وقتله ، واسرع يريد قتل امرأته ، فلم يوفق ، لانها كانت قد اسرعت بالهرب هي ورفيقاتها قبل ان يلحق بهن• ولما حاول ان يجري خلفها اصطدم بطاولة ضخمة في الطريق فأغمي عليه ، وسقط ارضا •

وكان هناك باب سري يصل بين قصر فوستا وهذا الفنـدق ، وقد استخدمته فوستا في هذه اللحظة ، واتت الى الفندق لتتأكد مما جرى •

وقد ظنت في بادىء الامر ان زوجـة دي كيز قد ماتت ، ولا بد ان

زوجها قد قتلها . واذاً فقد خلا لها الطريــق لتكون ملكة فرنسا بعد ان يصل دي كيز الى العرش ويتزوجها •

ولكنها لما لم تعثر على جثة كاترين دي كليف زوجة دي كيز، ادركت انها فرّت ، وان عليها ان تبحث عن طريقة جديدة تقضي فيها عليها •

ولما شاهدت دي كيز على الارض ركعت امامه، ولما تأكدت من حياته سرّت ، ثم رأت رجلا راكعا امام الكونت دي لوان يفحصه •

فسألته فوستا فيما اذا كان قد مات ، فأجابها بالنفي •

فقالت :

ــ يجب ان يموت •

فقال لها :

ــ اذاً يجب ان انقله الى منزلي لأتولى مراقبته •• حين يعود الى وعيــه •

فوافقت (فوستا) وامرت بعض رجالها بحمــل الجريح الى منــزل (ريجييري) الذي نظر اليها نظرة ، لو رأتها فوستا لشكت في اخلاصه ، ولحسبت له الف حساب •

ثم التفت الى الجريح وقال :

ــ ان هذا الجريح سيشفى ، وسيظهر في الوقت المناسب ، ليكون حجر عثرة في طريقك انت ودي كيز •

ولم يكن (ريجييري) هذا ، غير المنجــم الذي كان يعمل للملكــة كاترين كما اسلفنا في الاجزاء السابقة من هذه الرواية الهائلة •

واما كاترين دي كليف ، فانها احست بأنها تكاد تسقط الى الارض، لما اصبحت خارج الفنــدق ، من فرط الاعياء والخوف ، فنظرت حولها ، فشاهدت رجلا ، فطلبت منه انقاذها ، وصاحت :

ــ رحماك •• انهم يريدون قتلي •

فقال الرجل :

ــ ما هذه الليلة .. ان السمــاء تمطر نساء ، لقد مر بي عدد من النساء الهاربات حتى الآن ، فلننظر لنرى من تكون هذه المرأة .

وتقدم نحو منزل فوستا .. وكان النور ينبعث من احد نوافذه .

وفي هذه اللحظة اغمي على كاترين دي كليف وهي بين يديــه ، فلم يبق امام الرجل الا ان يعمل لمساعدتها ، ولم يكن هنــاك غير قصر فوستا امامه ، فطرق بابه .

وفتح الباب ، ودخل بارداليان يحمل الدوقة دي كيز بين يديه .

ذلك ان هذا الرجل لم يكن غير صاحبنا بارداليان .

واما (بيبو) كلبــه المخلص فقد ظل خارج البيت يعوي ، بانتظار صاحبه .

★ ★ ★

ذهب بارداليان بعد مغادرته ، فندق هيكيت الى فندق الامل حيث نزل بلجودير النوري وسأل صاحبــه عن النوري والفتــاة فلم يحظ منه بطائل .

فانتظر حتى اقبل الليــل وخرج مع كلبــه ، بعد ان وضع على فمه منديل البنفسجية ، لعــل بيبو يذهب به الى المكان الذي كانت فيه لآخر مــرة .

ولم يفطن بارداليان وهو في طريقه الى ان ثلاثة رجال كانوا يتأثرون خطواته ويتبعونه ، وكان اولهم (مورفر) الذي وقف يراقبــه منذ دخل الى الفنــدق ، لعله يتمكن منه غيلة وغدرا ، فينتهي عذابه ، ولا يعــود بارداليان يهدده وينغص عليه عيشه ، وكان يعلم ان بارداليان سوف يقتله

اينما وجده ، او عثر عليه ، بعد ان عرف بموت (لويزا) زوجته ، من الطعنة التي اصابها بها ، فراح يجوب الارض هاربا من وجه القدر الممثل في باردليان ، فيما كان هذا يدور باحثا عنه ، في طول البلاد وعرضها .

واخيرا وبعد ان ضاقت به الدنيا عاد الى باريس ، ليساعد دي كيز في مشروعاته ، وهو واثق من ان هذا سوف يجزل عطاءه ، ويلقي اليه بمقاليد وظيفة رفيعة ، فلما شاهد باردليان خارجا من فندق (دفينير) أسقط في يده ، وعلم ان لا حياة له الا بقتل خصمه ، فخرج يتأثره ، ولكنه لم يكن يجرأ على مهاجمته وجها لوجه .. ولو كان هذا في الظلام الدامس .

واخيرا شاهد بيكوسي وكرواس في الطريق فعرض عليهما قتل باردليان مقابل مبلغ من المال ، فوافقا ، ومضيا خلفه ، وسار مورفر خلفهما .. دون ان يفطن الرجلان الى ان الرجل الذي يريدان قتله لم يكن غير باردليان ، الذي اضافهما لساعات خلت .

وقد وصل بيبو بصاحبه الى قصر فوستا ، في اللحظة التي كانت كاترين دي كليف تعدو من المنزل المجاور ، هاربة من وجه زوجها الذي كان يريد قتلها ، لتسقط بين يدي باردليان وتطلب معونته ، ثم يغمى عليها ، فلم يبق امام باردليان الا ان يطرق الباب الذي امامه لعل اهله يسعفون المرأة التي غابت عن صوابها ، ولم يكن هذا المنزل الذي طرق بابه ، غير قصر فوستا .

★ ★ ★

ولقد تركنا كلود لما احاط به رجال فوستا ، يقفز الى الحبل القائم فوق الباب ليهبط به الى النهر ، حيث غاص لحظات ، ضاما الفتاة الى

صدره ، ثم صدم الارض برجله فارتفع الى سطح الماء ..

ومضى يسبح حتى وصل الى الشاطىء ، ومنه مضى مسرعا الى منزله ، والبنفسجية لا تزال في حالة الاغماء الشديد .

ولما اخذ يعالجها هو وخادمته .. لم يفطن الى ان بلجودير النوري الذي اقبل الى المنزل ووقف على بابه ، يريد ابلاغ الجلاد انه هو الذي خطف ابنته ، وانه الذي ارسلها في طريق الغواية ، فليبحث عنها في منزل الدوق دي كيز .

ولكنه ما لبث ان ذعر واستبد به الذهول ، حين وجد كلود يعالج البنفسجية من اغمائها ، فتحير في امره ، واسرع هاربا وهو لا يعرف تفسيرا لما وقع .

لقد ارسل الفتاة بنفسه الى منزل الدوق دي كيز — مع انه ذهب بها الى منزل فوستا ، وهو لا يدري كما قدمنا — فكيف تمكنت من الافلات والهرب ، وكيف اجتمعت الى الجلاد ، الا ان يكون (كلود) قد عثر عليها صدفة بعد هربها فعرفها وجاء بها الى منزله .

وعندئذ قرر الذهاب الى المنزل الذي اخذ الفتاة اليه ، وذهل حين شاهد (فوستا) تستقبله ، بدلا من الدوق دي كيز .

وبعد ان تحدث الى (فوستا) بالقصة ، استدعت هذه الكردينال فرنيز ، وتحدثت اليه طويلا ، ثم احتفظت بالنوري في القصر .

اما كلود فقد قرر مغادرة باريس ، هربا من المخاطر التي تتعرض له فتاته .

فلما عادت الفتاة الى وعيها اخبرها انه ليس والدها ، حتى لا يضيق صدرها من صنعته كجلاد ، وانه التقطها بعد مقتل أمها ، وهو لا يعرف شيئا عن والدها ، وانه تبدل بعد ان قام بتبنيها شخصا آخر .

كما قرر اعتزال مهنته ، وهي مهنة ، كان يقوم بها بأمر من القضاء

والمحاكم ، وانه ليس بالقـاتل كما تتصور ، ثم سر لها كيف مضى يرعاها في صغرها ، حتى ازهرت وكبرت ، ثم كيف اختفت بعد خروجها من منزله، فلم يعثر عليها الا في منزل فوستا .. وهو الان يطلب منها شيئا بعد ان عرفت بسره وامره ، وانه ليس والدها ، الا ان يظل معها يرعاها ويحبها من بعيـد .

وتأثرت البنفسجية لكلام (كلود) الذي ركع امامها وانتظر جوابها. فأمسكت بيده وانهضته ، ثم عانقته وهي تقول :

ــ عانق ابنتك يا ابي .

فعانقها (كلود) ، والدنيا لا تسعه من شدة الفرح والسرور .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، فقد قرر (كلود) السفر بابنته كما قدمنا ، ومغادرة باريس خوفا عليها ، وغادر منزله ليستعد للسفر ،ويستأجر مركبة لهذا الغرض ، ومر في طريقه بالكنيسة فدخل للصلاة ، فالتقــاه فرنيز فيها ، ووقف امامه يذكره بما فعله معه ، وكيف انه ترك ابنته الصغيرة تموت بعد مقتل امها .

وسأله تفسيرا لعمله هذا ، لان لكلود ابنة ، وهو لا بد يقدر حب الاباء لاولادهم .

ولما شاهد فرنيز ان (كلود) لا يجيب على سؤاله ، قال له :

ــ ان لك ابنة ايها الشقي ، وانت تحبها طبعا ، وانتقاما منك لما فعلته بابنتي لقد اخذت انا ابنتك الى قاعة التعذيب ..

« لقد قبضوا على ابنتك بعد مغادرتك المنزل ، وهي الان في قبضة فوستا ، ولسوف تقتلها ، وانا الذي فعلت ذلك » .

وساد صمت بين الرجلين .

وجمد (كلود) في مكانه حتى لم يعد باستطاعته ان يقول شيئا .

ثم التفت الى فرنيز وقال له :

ــ هل انت الذي فعلت ذلك ايها الكاهن ؟

فقال الكردينال فرنيز :

ــ نعم ايها الجلاد .

فأنَّ (كلود) انينا خرج من صدره كالصفير ، ثم قال :

ــ اتعلم ايها الكاهن حقيقة الفتاة ، التي كنت السبب في قتلها ؟

وجمد الدم في عروق فرنيز .. ونظر الى (كلود) ينتظر ما ينطلق به لسانه .. وسأله :

ــ من تكون هذه الفتاة ؟

فقال (كلود) :

ــ انها ابنتك التي كنت تتهمني بقتلها ، واني تركتها تموت بعد اعدام امها ، والواقع اني انقذتها ، وحملتها الى بيتي وتبنيتها .. وحفظتها ودافعت عنها .

وغادر الكنيسة دون ان ينظر الى فرنيز الذي صعقه الخبر ، فوقع مغمى عليه .

٤

باردالیان وفوستا

غادر كلود كنيسة نوتردام ، وقد اسودت الدنيا في وجهه ، وذهب توا الى منزل فوستا ، حيث اخذ يطرق بابه ، فلا يرد عليه أحد .

فمضى يقرع الباب حتى كلت يداه واصبح كالمجانين .. فسقط امام الباب خائرا تعبا .

ولما عاد الى نفسه بعد ساعة من الزمن ، ذهب الى منزله ، فوجده خاليا ، ليس فيه اثر لفتاته ولا لخادمته ، وشاهد جميع الابواب مفتوحة ، كما رأى آثار العراك في الغرفة ، مما اكد له ان فتاته قاومت المعتدين الذين حاولوا خطفها ، مقاومة عنيفة .

اخذ يلمس كل شيء تخيل ان البنفسجية لمسته ويقبّله ويبكي ، ثم جلس على الكرسي ، الذي شاهدها تجلس عليه ، واخذ يفكر .

واخيرا خطر له خاطر الانتحار .. اذ لم يبق له امل في الحياة ، فقام مسرورا وفتح غرفة منفردة في البيت حيث كان يضع آلات القتل والشنق حين كان يزاول مهنة الجلاد .

وبعد ان علق حبلا في سقف الغرفة ، صعد الى كرسي ووضع عقدة الحبل حول عنقه ، ثم رفس الكرسي ، فبات معلقا في الهواء .

وفي هذه اللحظة اقبل شخص الى الغرفة ، فلما شاهد كلود معلقا بالحبل ، جرد خنجره وقطع الحبل ، وامسك بكلود فوضعه على الارض، واخذ يدلك جسمه ، حتى عاد الى نفسه .

ولما شاهد الرجل الذي انقذه عرف فيه الكردينال فرنيز ، فدفعه عنه ، واسرع الى فأس في الغرفة ، فتناولـه ورفعه الى فوق رأسه كأنما يريد القضاء على نفسه به .

ولم يتحرك (فرنيز) من مكانه .

وجمد كلود حين تأمله .. لقد شاهده منذ ساعات اسود شعر الرأس واللحيـة ، فاذا بالشعر الاسود قد استحـال الى بيـاض ناصع .. كأن الكردينال كبر عشرين سنة في ساعات .

وقال الكردينال :

ــ لقد جئت اقول لك ان لدينا ما نفعله غير الانتحار .

فأوقف كلود الفأس وسأله :

ــ ما الذي يجب ان افعله .. أتريد مني ان اقتلك قبل ان اقتـل نفسي ؟..

ــ اقتلني اذا شئت .. ولكني جئت لاقول لك ان علينا ان ننتقـم للفتاة قبل الموت .

فاهتز (كلود) لهذا الاقتراح وسأله :

ــ ننتقم لها ؟

ــ طبعا .. ننتقم لها من تلك المرأة التي اغتنمت فرصة غيابك عن منزلـك ، ولا ادري من اخبرها بذلك ، فأرسلت من اختطف ابنتي ، كما استخدمتني لقتلها .. فهل لك ان تساعدني على قتل هذه المرأة ؟

« وعليك ان تعلم اننا امام خصم قوي •• وان باستطاعتها وباشارة من يدها ان تقتلنا •• اني لا اسألك ان تساعدني غير عام واحد •• وعليك ان تكون في هذا العام عبدي وآلة في يدي ، لاني انا الوحيد الذي يعرف الطرق السرية التي توصلنا اليها » •

وكان كلود يسمع كلام فرنيز ، وامارات الفرح الوحشي مرتسمة على وجهه ، حتى اذا اتم حديثه قال له :

ـ مولاي •• لقد بعتك منذ هذه الساعة نفسي وجسدي ، فافعل بهما ما تشاء •• وهذه يدي فهات يدك •

وبعد ان تعاهد الرجلان على العمل معا ، وكتبا هذا التعهد في عهد وقعه كل واحد منهما •

غادر (فرنيز) المنزل ، فيما وقف كلود يشيعه بنظراته وهو واجم هادىء •

★ ★ ★

كانت فوستا بعد ان دخلت الى فندق (الآلة الطاهرة) وشاهدت دي كيز ملقى على الارض وهو مغمى عليه ، وقد هربت زوجته منه ، قد عادت الى قصرها وامارات الغضب بادية على وجهها ، ان لم يتمكن دي كيز من قتل امرأته ، لتحل محلها ، وتصبح ملكة على فرنسا كما كانت تتوقع لدي كيز ان يكون •

ثم فكرت بالكونت دي لوان الجريح ، الذي صار نقله الى منزل ريجييري الفلكي ، وصديق الملكة كاترين ، فاطمأنت الى مصيره ، وانه لا بد ان يموت •• بعد ان اوصت الفلكي بقتله •

ثم راحت تكفر في المكيدة الجديدة التي يجب ان تنصبها لكاترين

دي كليف زوجة دي كيز حتى تقضي عليها .

وكانت سراي فوستا مؤلفة من ثلاثة اقسام .

الجانب الايمن وهو القسم الرسمي .. ويتألف من الغرف المحيطة بقاعة العرش .

وفي الجانب الايسر غرفتها الخاصة .. وفي الوسط مساكن الضباط والحراس والخدم ، وقاعات التنفيذ التي تقدم لنا وصفها .

ولما ذهبت الى غرفتها الخاصة ، مضت في رواق طويل تقوم الغرف المختلفة على جانبيه ، فوقفت عند باب احدى هذه الغرف وقالت :

ــ هنا توجد البنفسجية وسنقرر مصيرها .

ولما وصلت الى باب آخر قالت :

ــ وهنا كلودين دي بوفيليه ، وربما استطعنا بواسطتها حل العقدة.

وكانت كلودين هذه من النساء اللاتي كن في فندق (الآلة الهاصرة) وقد هربت الى منزل فوستا بعد ان اقتحمه دي كيز ، وهجم على الكونت دي لوان يريد قتله .

وسارت الى غرفة ثالثة فقالت:

ــ هنا ماري دي لورين وهي تنتظرني وسأحدثهـا بشأن عشيقها .
وكانت ماري شقيقة دي كيز .

ولم يكن عشيقها غير جاك كليمانت ، وقد كانا معا في الفنـدق ، ثم هربت الى قصر فوستا .

ولما وصلت الى الغرفة الرابعة قالت :

ــ وهنا يوجد بلجودير النـــوري ، وهو احسن خنجر اجرده على فرنيز .

وفيما هي تفكر بكل هذه الامور . سمعت طرقا شديدا على بابها ، فأسرعت تطل من احدى النوافذ ، فلما رأت باردالیان يحمل زوجة دي‌كيز بين يديه ، تولاها سرور عظيـــم ، وامرت خدمها بفتح الباب ، واسرعت لاستقبال باردالیان ، فعهد هذا بزوجة دي كيز الى وصيفتي فوستا ، ثم رفع قبعته يشكر صاحبة المنزل ، وهو يقول :

ــ اريد ان اعرب لك عن شكري يا سيدتي ، فلولاك لما عرفت ما اصنع بهذه السيدة التي لا اعرف من تكون .. فقد سقطت عليّ من حيث لا ادري وهي تطلب النجدة ، ثم اغمي عليها ، فلم اجد غير بابك اطرقـــه ، لعلي اجد من يساعدني فيه .. وقد ظفـــرت بهذه المساعدة والحمد لله ، فشكرا جزيلا .

فقال له فوستا :

ــ ان مروءتك هذه تدعوني الى المزيد من الاعجاب بك..والتعرف عليك ، فتفضل بالاستراحة مليا ، في منزل الاميرة فوستا بورجيا ، وهي سيدة غريبة قدمت الى باريس لتتعلم آداب اهلها وفنون نبلائها .

فقال باردالیان في نفسه :

ــ انها من اسرة بورجيا المشهورة .. وهي جميلة وذكية كما يبدو ، وعلى المرء ان يكون حذرا معها .

وتقدمته فمضى خلفها ، وهو مندهش حائر لما كان يشاهده من مظاهر الثراء في الغـــرف التي يمر بها ، حتى وصل الى قاعـــة العرش ، فقال في نفسه :

ـ يبدو ان هنـاك عرش غير عرش ملك فرنسا في باريس .. فهل تظن هذه المرأة نفسها من الملكات ؟

واخيرا وصلا الى غرفة سألته الجلوس فيها ، ثم مضت تحدثـه بما تعرفه من حوادثه ، وكيف وقف في وجه الدوق دي كيز ، وساعد قائـد الحرس كيرلون على مغـادرة باريس ، واخبرته انها شاهدت كل هذا من نافذة قصرها ، المطلة على الساحة .. حيث وقعت الحوادث .

ثم عرضت عليه ان يكون من اعوانها .

فشكرها على تقديرها ولم يقل شيئا .

قالت له :

ـ لا بد ان الدوق دي كيز يكرهك كرها قاتلا بعد موقفك الاخير منـه ؟

ـ انه يكرهني بالتأكيد .. ولكن كرهه غير قاتل ، ولولا ذلك لما كنت حتى الآن على قيد الحياة .

ـ لماذا لا تسأله ؟

ـ تريدين ان تقولي يا سيدتي ، انه خير للـدوق ان يعقد صلحـا معي ؟

نظرت اليه فوستا باعجـاب ، واكبرت جرأتـه واعتـداده بنفسه وبسيفه .

وقالت :

ـ انك اذا خدمت دي كيز ، فانه لن يقتصر على مسالمتك ونسيان الماضي ، بل سيجعلك من كبار السادة .

ـ انه لن يفعل .. بعد ان صفعته بيدي هذه .

فدهشت فوستا وسألته :

ـ هل صفعت الدوق دي كيز ؟

ـ نعم .. وكان سبب هذا انه هاجم على رأس رجال منزل شيخ عجوز لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، وقتله ، وداس الرأس المقطوع بقدمه .. فكان ان صفعته لهذه الفعلة الشنيعة .

وسكتت فوستا وادركت ان هذا الرجل يستطيع ان يفعل امورا كثيرة لا يقدم عليها سواه .

سألته اذا كان يوافق على العمل مع شخص آخر ، غير دي كيز .

قال :

ـ لست ارى شخصا يستحق ان اعمل له .

فقالت :

ـ اني هذا السيد الجديد الذي يريد خدماتك ، واني في سبيل القيام بمشاريع عظيمة ، وبحاجة الى مثلك .

« ولتعلم اني المرأة التي عقد الاساقفة ورجال الدين ، اجتماعا سريا وقرروا بالاجماع انتخابي لاكون رئيسة لهم .. فما رأيك ؟ »

قال دون ان يفطن لما يقول :

ـ هذا محال .

وقالت فوستا في نفسها :

ـ لقد عرف هذا الرجل بمقاصدي واسراري ، فاما ان يصبح من رجالي .. او لا يخرج من هذا القصر حيا .

فقال بارداليان وهو يحدق في وجهها :

ـ لقد اتيت كما يبدو لفرنسا لغرض لم اعلمه ، ولكنه غرض عظيم كما يبدو .

فأجابته فوستا بهدوء :

ــ لقد شاهدت الفصل الاول من هذا الغرض ، حين سقط هنري دي فالوا ملك فرنسا لاول ضربة من ضرباتي •• وفر هاربا من عاصمته ، فبات عرش فرنسا خاليا •• فما رأيك بالملك الهارب ايها الشفاليه ؟

ــ ليس لي رأي به ، انه كما تقولين رجل هارب .
ــ هل هناك ما يدعو للاخلاص له ؟

فقال بارداليان :

ــ اني لا اعرفه غير معرفة سطحية ، وقد رأيته مرتين حين كان يدعى الدوق دي انجو ، فلم يبعث فيّ شيئا من الاحترام لشخصه .

فتألق وجه فوستا وقالت :
ــ وما رأيك بالدوق دي كيز ؟
ــ اظن ان سيدتي تريد ان تسألني فيما اذا كان الدوق جديراً بعرش فرنسا ؟
قالت :

ــ نعم •• هذا ما اريد معرفته •• وسأجعل ملك فرنسا المقبل ينسى سوء التفاهم الذي وقع بينك وبين الدوق دي كيز .
فقال :

ــ ارجو ان لا تفعلي •• واما رأيي ، فهو ان عرش فرنسا يزداد رونقا وجمالا اذا كان خاليا لا يجلس عليه احد •• ولست اعتقد ان دي كيز سيصل الى هذا العرش ••
فأجابته هازئة :
ــ لماذا ؟
ــ لاني سأكون في طريقه •• واما انت يا سيدتي الجميلة فيحسن بك ان تعودي الى بلادك ، ودعي فرنسا لابنائها ، كما انذرك بأنك لن

توفقي في مشاريعك ، لاني سأكون ايضا في طريقك •

وحنى بارداليان رأسه ••

وصفرّت فوستا •• فلما رفع رأسه وجد نفسه محاطـا بعشرة من الحراس ، وقد اختفت فوستا •

وضحك بارداليان •• ضحكة مرعبة ••

وسألهم وهو يسل سيفه :

ـــ هل انتم من قطاع الطرق ام من اللصوص ؟

كان خصومه قد وضعوا الاقنعة على وجوههم ، فلم يستطع والحالة هذه معرفة احد منهم ، وكانوا يحملون الخناجر والسيوف •

وبدأت المعركة لما تقفز بارداليان الى ركن في الصالة ، واخذ صاحبنـا ينقض على خصومه كالصاعقة ، فيدفـع هذا ارضا ، وذاك الى الحائط ، وآخر الى الابدية •

كان يثب من مكان الى آخـر ، فلا يكاد يدركه احد منهم •• وكلما وثب سقط واحد منهم •

فما انقضت دقائق حتى كان قد سقـط الى الارض خمسة منهم بين جريح وقتيل •

وعندئذ اقتحم القاعة سبعة يحملون البنادق النارية ، فأيقن بارداليان بالموت المؤكد ، وتذكر (مورفر) في هذه اللحظة ، وكيف انه سينجو من انتقامه ، اذا تم لهؤلاء الاعداء ما يريدون •

وقبل ان يطلـق احد من القادمين النار ، فتح البـاب السري الذي يصل بين قصر فوستا ، وفندق الآلة الهاصرة ، ودخل منه الدوق دي كيز، الذي اسعفته صاحبة الفندق ، وذهبت به الى الباب السري ليغادر المكان،

فاغتنم بارداليان هذه الفرصة ، وانسل الى الباب من خلف الدوق ، قبل ان يفطن له هذا . فأسرع رجال فوستا خلفه .

ولكنه كان اسرع منهم الى الباب الخارجي، ومنه اصبح في الشارع، ومضى في سبيله .. دون ان يفطن الى الرجال الثلاثة الذين كانوا خلفه .. حتى اذا وصل الى الجسر ، قال مورفر للرجلين :

ـ هيا عليه ..

واسرع الرجلان لمهاجمة بارداليان ، وكان الظلام شديدا .

وسمع بارداليان وقع الاقدام خلفه ، فاستدار فشاهد الرجلين وسمع احدهما يقول :

ـ كيسك او الموت ..

فعلم انهما من اللصوص ، فقرر ان لا يجرد سيفه احتقارا لهما ، ورفع قبضته فهوى بها على انف الاول ، فهده ، كما اصاب فك الثاني فلواه .

وصاح بهما :

ـ هيا اركعا واطلبا العفو من الشفاليه بارداليان .

وعندئذ عرفه بيكوسي وكرواس من صوته ، وصاح الاول يقول :

ـ انا بيكوسي .

وهتف الثاني :

ـ انا كرواس .

فقال بارداليان :

ـ لقد سمعت هذين الاسمين فمن تكونان ؟

فأجبراه بأمرهما ، وكيف انه هو الذي دعاهما الى مائدته ، وان شخصيا تعرض لهما بعد ذلك وسألهما قتل انسان ، واعطاهما مائة دينار

لهذا الغرض .. فقبلا دون ان يعرفا من يكون الضحية ، وانه كان معهما لدقائق خلت .

فأسرع بارداليان يبحث عن الرجل الذي يريد قتله ، فلم يعثر على احد .

عاد الى الرجلين وسألهما عن اوصافه ، فوصفاه له ، فعلم انه (مورفر) .

فأمرهما بالانصراف لشأنهما .. بعد ان عرف ما يريده منهما ، ولكنهما طلبا منه ان يسمح لهما بالبقاء معه ليقوما بحراسته .

فضحك بارداليا وقال :

ــ لا بد انكما تخافان ان يلحق بكما المجرم ، فتعالوا معي احرسكما .. وستظلان الليلة في حراستي .

فسارا قدامه ، وهو في سبيله الى منزل الدوق دي انجلوم .

* * *

– ٥ –

اسرار اللوفر

اجتمعت الملكة كاترين دي مدسيس ام الملك الهارب ، في قصر اللوفر مع الفلكي ريجييري ، تبحث موقفها ومصير ابنها الملك ، بعد ان اخذ دي كيز يعمل هو وانصاره لاغتصاب العرش .

فقال لها الفلكي :

– انت الذي اطعمته وجعلت له هذه المكانة بين الشعب ، حين ساعدته في مذبحة برتلماوس .. التي ذهب فيها ولدي انا ايضا .

فقالت كاترين وقد عرتها هزة :

– هذا صحيح .. وكان عليّ ان اقتله اولا ، ثم تكون المذبحة .. كيف حال الكونت دي لوان ؟. وهل نجا من الخطر ؟

– نعم .. وسيشفى بعد شهر .

فقالت :

– اذن جئني به حين يشفى ، لاني ارجو الافادة منه .. ولا تنسى

ان تعتني بالزائر المقبل عناية عظيمة ، واحذر ان تبدر منك بادرة تدل على اسمه ؛ وضعه في مكان يرى بعينه ويسمع باذنيه كل ما سوف يجري من الحديث في غرفتي .

وقرعت جرسا فاقبل خادم فسألته :

ــ هل جاء المسيو بيريتي ؟

فأجابها بالايجاب ، وانه ينتظر في القاعة المجاورة .

ذهب ريجييري الى القاعة فوجد فيها شخصا ، يرتدي ملابس عامة الشعب ، ينظر الى الرسوم التي تزين القاعة بشيء من الاستياء والاحتقار .

كان ابيض الشعر ، يناهز السبعين من العمر ، ولكنه كان منتصب القامة ، تدل عيناه على القوة والكبرياء ، كما تدل جبهته العريضة على الذكاء والاقدام .

ولكنه لما احس بقدوم الفلكي ، تكلف الضعف والاعياء ، ونهض وهو يتوجع كأنما يلقى عناء في كل حركة يقوم بها ، واخذ يتوكأ على عصا باحدى يديه ، فيما امسكت الثانية بساعد الفلكي الذي تقدم لمساعدته واستقباله ، بكل احترام واجلال .

لم يقل الفلكي للزائر شيئا .

مضى به الى غرفة خفية ، متصلة بالقاعة التي كانت فيها الملكة ، واجلسه خلف ستارة ، فيها ثقب بحيث كان باستطاعته سماع ومشاهدة كل ما يقال ويجري .

وكانت الملكة كاترين تصلي في هذه اللحظة ، وبعد دقائق سمع هتاف وصياح ، فادركت الملكة ان الدوق دي كيز قد وصل الى القصر ، فأمرت بادخاله عليها ، فيما ظل رجاله في الرواق .

وقف دي كيز امام الملكة وهي جالسة على كرسيها ، فلم يشاهد في وجهها ما يدل على الخوف والحذر .

كانت قد تمالكت اعصابها ، تنظر الى الشخص الذي وقف امامها ، وقد ظهرت على وجهه علائم العظمة والكبرياء .

دهش لما شاهدها قوية هادئة .
كان ينتظر ان يراها مضطربة قلقةتلتمس الرأفة بولدها الملك الهارب.
قالت تخاطبه :

ــ ليس هناك من يسمع ما تقول .. وانا على استعداد لسماع ما تريد ان تقوله .

« لقد اصبحت ملكة دون عرش ، واماً دون اولاد ، مات اولادها جميعا ، الا واحدا غادر عاصمته .. وسواء اكنت صاحب هذه الثورة ام لم تكن فقد اصبحت على كل حال المنتصر على اسرة فالوا ايها الدوق ، فالى اين تريد المضي في ثورتك ؟ » .

وقال الدوق :

ــ لست انا صاحب هذه الثورة ، وانما هو الشعب ، قد حاولت اخمادها فلم اوفق ..

« واما سبب هذه الثورة فابنك الذي زاد الضرائب .. وسار في سياسة تخالف سياسة الشعب .. والشعب الآن يريد ملكا قويا حقيقيا .. » .

ــ وهذا الملك الحقيقي هو انت ؟

ــ لا فرق يا سيدتي بين ان اكون انا او سواي .. المهم انقاذ فرنسا .. من المخادعين الذين كانوا يسيطرون على الملك .

ـ لقد حذرت ابني من هؤلاء المخادعين ، فلم يلقِ بالا لكلامي •• وقد اصبحت الآن عجوزا ضعيفـة لا قوة لي ولا بأس •• ولكن الذي يخيفني هو ان ينتقل عرش فرنسا الى هنري دي نافار الهيكونوتي الذي يحشد الآن جيشا عظيما في (روشل) ••

اصفر وجه الـدوق حين سمع هذا الاسم •• فلم يكن في الواقـع يرهب غير هذا المزاحم •

ومضت الملكة تقول وقد دمعت عيناها :

ـ من الذي يستطيع الوقوف في وجه هذا الكافر ؟ ان ولدي هارب مضطهد بعيد عن جنوده لا يستطيع شيئا ضد هذا المزاحم •• وانت كيف تستطيع مقاومة هذا الكافر ومنعه من الوصول الى العرش ، ولست تملك من المال والجند ما يكفي لهذا الغرض ؟

وكذلك نقلت كاترين الداهية الحديث عن اغراض دي كيز ومطامعه •• الى الخطر الذي يهدد الجميع من هنري دي نافار، زعيم الهيكونوت••

وتحمس الدوق دي كيز وقال :

ـ اني على استعداد لمنع هذا الرجل من الوصول الى باريس ••

ـ ولكنك لاتملك السلطة ما يساعدك على ذلك •• يجب انتكون ملك فرنسا اولا ، ولا يمكن تحقيق هذا الا بخلع ولدي ، وهي جريمة لا يقدم عليها نبيل مثلك ••

ـ مهما يكن من بشاعة الجريمة ، فلا بد لي من ارتكابها •

قالت :

ـ هذا معناه الحرب الاهلية والحرب الاهليـة خطر لا يمكن للمرء معرفة عواقبه ، ولمن يكون النصر آخر الامر ••

« اليس عندك طريقة افضل ؟»
ــ كلا .. هل عند سيدتي شيئا ؟
ــ نعم .. هو ان تنتظر موت ولدي ..

وارتعش الدوق حين سمع هذا الجـواب .. ومضت الملكة تقول وهي تسمح دموعها :

ــ ان ابني مريض كما تعلم .. والاطباء يقولون ان عمره لن يطول اكثر من عام واحد .. واذا مات انقرضت سلالة فالوا ، وخرج الملك من الاسرة .. لانه لم يبق منها احد كما تعلم ..

وجمد دي كيز في مكانه .. وقد اثر عليه كلامها ، ومضت الملكـة تقول بصوت حزين :

ــ واذا مات ولدي بعد اشهر مثلا ، كما يتوقع الاطباء ، فستنقرض اسرة فالوا بموته واسفاه ، وسيخلفه طبعا الذي يختاره الملك قبل وفاته.. وطبعا لن يعين الملك الا من انصحه انا بتعيينه ، لانك تعلـم نفوذي على ولدي الملك .

سألها دي كيز باهتمام :
ــ ومن هو الذي سوف تنصحين بتعيينه ؟
فقالت باهتمام :

ــ سوف انصحـه بتعيين الشخص الذي يساعدني على طرد هنري دي نافار من فرنسا هو وانصاره .

وخفق قلب دي كيز لهذا الاقتراح .

لقد اصبح ملكـه مضمونـا تحت هذه الشروط ، ولن يضطر الى الدخول في حرب اهلية للوصول الى العـرش ، وهي حرب قد لا يفوز فيها ، وقد يفوز .

وللوصول الى اغراضه هذه ليس عليه الا ان ينتظر عدة اشهر اخرى •• واذا طال عمر الملك . فان تعجيل موته بعد كتابة وصيته ، يكون من ايسر الامور •

واصبح بالتأكيد ميالا الى المسالمة والاتفاق •• فقد اصبحت قضية العرش في متناول يده بصورة شرعية مضمونة لا اعتراض عليها •

ولما استقر على هذا الرأي سرّي عنه ما كان يساوره من القلق ، حتى تبدل شخصا آخر وحنى رأسه احتراما للملكة ، وقال :

ــ متى تريد سيدتي ان اذهب للبحث عن الملك ، والعودة به سالما الى عاصمته ؟

واطبقت كاترين عينيها ، حتى لا يشاهد سرورها •• ثم قالت :

ــ سوف نذهب معا يا ابن العم •• ولكن بعد ان يعرف الباريسيون ان الملك لم يعد الى عاصمة ملكه الا بعد مداولات وشروط •

« اطلب ما تشاء لك ولانصارك ، حتى لا يظن انصارك انك خضعت دون قيد ولا شرط ، وحتى تبقى زعامتك للحزب المقدس قائمة ثابتة » •

فسر الدوق دي كيز لهذا الاقتراح وقال :

ــ سوف اذهب لمقابلة جلالة الملك بوصفي رئيس الحزب المقدس•

فقالت كاترين :

ــ هذا حسن •• ولكن عليك ان تضمن مساعدة الحبر الاعظم •

فهز الدوق دي كيز رأسه وقال :

ــ لقد آن للحبر الاعظم ان يصرف اهتمامه الى شؤون الكنيسة ويتخلى عن شؤون فرنسا •

« لقد كان ولدك الملك ضعيفا جدا امام (سيكست كنت) البابا ••

الذي يطمع باستعادة المملكة ، ولهذا لا يجب الركون اليه والتماس مساعدته » .

فقالت كاترين :

ــ ولكن سيكست كنت صاحب نفوذ عظيم .

ــ لقد ضعف نفوذه كثيرا في هذه الايام الاخيرة ، وقد علمت ان الكرادلة عقدوا مجتمعا سريا .

وتوقف فجأة عن الكلام فقالت كاترين :

ــ لماذا توقفت .. لقد اصبحت منا ومن الحق ان لا يخفي احدنا عن الآخر شيئا .

فقال دي كيز :

ــ ان ما اعرفه شديد الغرابة حتى اني لا اكاد اصدقه ، ومع ذلك فهو واقع لا سبيل الى تجاهله ، لقد اصبح للكنيسة زعيم منظور وآخر غير منظور .. والحزب المقدس الذي امثله لا يخضع الا لهذا الزعيم .

فقالت كاترين وهي تحاول تكلف الرجفة :

ــ ولكن هذا كفر وبدعة في الدين .. اتؤيد البدع ايها الدوق ؟

ــ ولماذا لا افعل اذا كانت هذه البدعة تؤيد اركان الدولة على اساس متين .

فهزت كاترين رأسها وقالت :

ــ كل ما ارجوه ان يعيش ولدي هذه الاشهر الباقيات من عمره في هدوء وراحة .. ومن بعدنا الطوفان .

★ ★ ★

حتى الدوق رأسه امامها ، وذهب الى البـاب ففتحه فظهر رجالـه للملكة وكانوا اربعين نبيلا مدججين بالسلاح ، وقال لهم بصوت عال :

ــ ايها السادة لقد وعدتني الملكـة ان تبذل جميع جهودها لجمـع الشمل ، وتجنب حرب اهلية ، فصيحوا معي :

« تحيا الملكة » •

وهتف اعوانه هتافه ، وقد اذهلتهم هذه المفاجأة •• وكانوا يتوقعون غير ذلك •

وتابع كلامه قائلا :

ــ وقد وعدتني الملكة ان تقنع الملك بقبول مطالب الحزب المقدس•

وهنا زاد زهول رجاله ، فقـد جاءوا الى القصر للقبض عليهـا ، والاحتفاظ بها كرهينة عندهم •

ومضى الدوق يقول :

ــ وعليكم الآن تكتبوا مطالبكم لتعمل الملكة على تنفيذها •

واخذوا يتفرقون على الاثر ، والملكة تنظر اليهم بسرور ومكر، حتى اذا ذهبوا جميعا برقت عيناها حقدا وقالت :

ــ ليس والدي الذي سيموت ايها الابله ، بل انت •

ثم ذهبت الى الستارة التي كان الرجـل العجـوز مختبئا خلفها ، فازاحتها ، فوجدته في مكانه ، فوقفت الملكة امامه باحترام زائد ، لان هذا الرجل لم يكن غير البابا (سيكست كنت) نفسه •

وقال سيكست كنت :

ــ لقد كنت اعلم انهم يتآمرون عليّ وهم يعتقدون اني غير عالـم بما يفعلون •• ولكني لا اخاف كيدهم ، ما دام الله معي •

ونهض من كرسيه ظاهر النشاط قوي الجسم ، لا كما كان يتظاهر امام الفلكي ، وامام الكرادلة الذين يتآمرون ضده .

ومضى يقول :

— لقد كان ابنك ضعيفا امام الدوق دي كيز الذي يهدده دائما وابدا ، وكان عليه ان يتخلص منه منذ زمن بعيد .. كما انك انت نفسك ساعدت على ظهوره ونجاحه بتأييدك له .

فقالت :

— لقد أخطأت وأنا أعترف بخطأي .

فقال :

—وانا ايضا خدعت باخلاصه ، ولما طلب مني المساعدة وافقت على مده بما يطلب من المال ، وهو يكرهني الآن لان الاموال لم تصله حتى الآن ، ولكنها في الواقع في طريقها اليه .. فان قافلة مؤلفة من ثلاثين بغلا في طريقها الى باريس تحمل كميات عظيمة من الذهب الى هذا الدوق الناكر الجميل .. ولكنها لم تصل اليه ، ولن يصل اليه منها شيء .. لان هذه الملايين ستعود الى رومه .

فقالت تسأله :

— كيف فكرت بمساعدة هذا الرجل ؟

— لقد كنت خائفا من ازدياد نفوذ هنري دي نافار ، وكان ولدك الملك ضعيفا ، فلم اجد امامي غير دي كيز اساعده لمقاومة هذه البدع الجديدة .. التي ظهرت في فرنسا وتوشك ان تسيطر عليها .. وانت تعلمين ان كل اعتماد الكنيسة على فرنسا ، وخروج فرنسا من احضان الكنيسة فاجعة عظيمة ، يجب ان يتلافاها البابا وينفق في سبيلها ما عزّ وهان .

فقالت :

ــ اذا ايدتني كنت عند حسن ظنك وحميت فرنسا ، نعم ان ولدي ضعيف ، ولكني سأكون خلفه ، فأعطيه من قوتي •• ولقد رأيت بعينك كيف مكرت بدي كيز واعدته خاليا فارغا •• قف على الحياد ولا تؤيد احدا من اعدائي ، فأبيدهم جميعا •

قال سيكست كنت :

ــ انهم اقوياء يا كاترين •• كما ان هناك امرأة جديدة دخلت الى الميدان وقد اختارها بعض الكرادلة لمقاومتي ، وقد جاءت الى باريس للجلوس على عرش فرنسا بعد ان تتزوج من دي كيز وتقتل زوجته •• وهي من اسرة بورجيا المرعبة كما تعلمين •

فقالت :

ــ ولكن الدوق سيصبر الى ان يموت ولدي ، وهي ستصبر معه ، صارفة اهتمامها لقتل امرأته •

ــ وانت ؟

فضحكة الملكة وقالت :

ــ بينما هي تهتم بقتل المرأة ، اهتم انا بقتل الزوج •

ابتسم البابا وقال :

ــ والآن ماذا تريدين مني يا ابنتي ؟

قالت :

ــ اريد منك لزوم الحياد ، بيني وبين خصومي ، ولسوف ترى مني ما يرضيك • فأبيدهم واحدا بعد الآخر •• اقضي على دي كيز ، واضع حدا لاطماع هنري دي نافار ، واخيرا اعيد (فوستا) الى روما •

ــ ثم ماذا ؟

ــ ان تضمن لي مساعدة فيليب ملك اسبانيا •

ــ سأسل (كاجاتان) اليه وادعوه الى مساعدتك • هل تريدين شيئا آخرا ؟

فقالت :

ــ لا •• ولكني لي رجاء وهو ان تكون ضيفي في هذا القصر مدة اقامتك في باريس •

قال :

ــ سأفعل •• لاني تعب وبحاجة الى الراحة قبل عودتي الى روميه•

وسرت الملكة لنجاحها وغادرت الغرفة ، فيما ظل سيكست كنت وحده يفكر •

وبعد دقائق تحرك من مكانه وجلس خلف منضدة كبيرة واخذ يكتب •

فلما انتهى دعا الكردينال كاجاتان ، وكان الكردينال الوحيد الذي اخلص له . ووثق به ، وقال له :

ــ عليك ان تسافر في الحال ، فاذا اصبحت خارج باريس فاقرأ هذه الورقة بانتباه ، لانها تشرح لك ما يجب ان تقوم به ، فاذا انتهيت من استيعاب ما فيها فمزقها •

سأله الكردينال :

ــ الى اين يجب ان اسافر يا مولاي ؟

ــ ان امامك مهمة خطيرة ، وهي اقناع شخص بالانضمام الينا ، وهو الرجل الوحيد الذي يستطيع مساعدة الكنيسة ، وتوطيد عرش

فرنسا •• وهذا الرجل هو هنري دي بوربون •• ملك النافار الآن ، ولكنه سيكون ملك فرنسا •

★ ★ ★

مضت ايام ثلاثة لم يوفق فيها بارداليان والدوق دي انجلوم في العثور على اثر البنفسجية •• حتى دبّ اليأس الى قلب الدوق الشاب فاشتد قلقه وعظم حزنه •

ولكن بارداليان مضى يعزيه ويطيب خاطره ، ويعده برؤية البنفسجية قريبا ، حتى هدأ روعه ، وذهب الى فراشه ليأخذ حظه من الراحة •

وتوجه بارداليان بعد ذهاب الدوق للنوم الى الردهة ، ومر بعدها باسطبل المنزل فشاهد بيكوسي وكرواس ممددين فوق التبن يأكلان منه •

وكان بارداليان قد نسيهما ، فعجب لرؤيتهما في الاسطبل ، وسألهما عن شأنهما ، فقالا :

ــ لقد سمحت لنا بقضاء الليل في هذا المنزل وقد فعلنا •• ولما لم نجد ما نأكله اكلنا التبن الخاص بالخيل ، ولكننا في الواقع مللنا هذا النوع من الطعام ، وفي مرجونا ان نعثر على شخص يقدر مواهبنا ، نخدمه ويطعمنا •• فان لم نوفق فسنبرح هذا المكان لنبحث عن بلجودير •

واهتز بارداليان لما سمع بهذا الاسم وسألهما :

ــ اهو النوري الذي كان يقيم في فندق الامل •• فأجابا بالايجاب وانهما غادرا الفندق عند خروجه منه ، فشاهدا بارداليان ودعاهما الى طعامه في فندق (دفنير) ثم كان ما كان بعد ذلك •

سألهما عن البنفسجية وعن السبب الذي يدعو النوري للاحتفاظ بها .. فقالا : انهما لا يعرفان شيئا ، لانهما حين التحقا بخدمته منذ خمس سنوات .. كانت البنفسجية وسايزيبا تعملان عنده .

ـ من هي سايزيبا هذه ؟

ـ انها امرأة مجنونة تستكشف الطالع .

وقال بارداليان :

ـ سوف اقرر موقفي منكما غدا صباحا فاقضيا هذه الليلة هنا ، وسنرى ما يكون .

* * *

- ٦ -

خلف مورفو

قرر بارداليان بعد الذي سمعـه من بيكوسي وكرواس ، ان يـزور فندق الامل ثانية ، لعلـه يعثر على سايزيما ، فيعرف منها اخبار النوري والبنفسجية .

ولكن هذه الزيارة لم تكن سهلة ولا هادئة .

فقد وجد نفسه في صالة الفنـدق بين عشرة من اللصوص راحـوا ينادون صاحب الفندق ان يأتيهم بالمنجمة ، لتكشف لهم طالعهم .

وسأل بارداليان صاحب الفندق ، من تكون هذه المنجمة الساحرة ، كما كانوا يسمونها ، فأخبره انها اتت مع فرقة منذ ايام ، وبعد ان صرفوا في الفندق اياما ، يأكلون ويشربون وينامون اختفـوا جميعا وتركوا هذه المنجمة ، فاحتفظ بها لتكشف طالـع الزبائن حتى يسترد المال الذي له في ذمة اصحابها .

فقال بارداليان :

ــ اذا كان الامر كما تقول .. فأنت على حق .. فادع المنجمة لاشاهدها ، ولتكشف طالع الحاضرين •

وجاء صاحب الفندق بسايزيما ، فراحت تكشف طالع هذا وذاك ، حتى تقدم لها احدهم وكان زعيم العصابة ، فأخبرته .. ان دمه سيسيل بعد قليل •

غضب وضرب الطاولة بيده ، وهددها بالويل والثبور ان لم تغير له طالعه •

فأجابته :

ــ لا استطيع ان افعل .. فهذا هو طالعك .. فأراد ان يضربها ، فرده بارداليان عنها بدفعة من يده ، وقال لسايزيما :

ــ تعالي يا سيدتي واكشفي لي طالعي •

فاعترضه رئيس العصابة ، وأراد منعه ، بعد ما وقع منه ، انه لم يكن يخطر له على بال ، ان يجرأ شخص على الوقوف في طريقه ، وهو زعيم هذه المحلة •

فقال له بارداليان بازدراء :

ــ يحسن بك ايها الرجل ان تذهب من طريقي ..

هجم الزعيم على بارداليان يريد ضربه بقبضة يده ، فلكمه بارداليان لكمة عنيفة القته ارضا ، فنهض من سقطته واستل خنجره، وصاح برفاقه :

ــ اهجموا عليه وليمت الاشراف •

ولكن بارداليان انقض عليه وحمله كالعصفور بين يديه ، والقى به فوق الطاولة . وهدد جماعته بقتله ان حاول احدهم انجاده •

واستبد بالزعيم الغضب ، فصاح برجاله ليهجموا عليه مهما كانت النتائج •

فأغمد بارداليان خنجره عندئذ في صدره ، وسالت دماؤه على الارض . فصاحت سايزيما :

ــ لقد أنبأته بأن دمه سوف يسيل ..

وتراجع اللصوص على الاثر خوفا منه ووجلا .

وصاح الزعيم بصوت خافت :

ــ انقذوني ايها الرفاق .

فتحمسوا وهجموا ، فحمل عندئذ بارداليا الزعيم ، ولوّح به في الهواء ثم القاه في وجوههم ، فسقطوا معه ارضا ، وصاحت النسوة الحاضرات صيحات الاعجاب لهذه القوة .

وغادر بارداليان الفندق على الاثر مع النورية بعد ان سألها اذا كانت تريد مغادرة هذا المكان فأجابت بالايجاب .

وقبل ان يصل الى الباب اسرع اللصوص الى فتحه له ، فلما احتواه الشارع المظلم .. سأل النورية الى اين تريد ان تذهب ؟

فقالت :

ــ اريد مغادرة باريس لاني لم اعد اطيق البقاء فيها .

فذهب بها حتى اخرجها من احد ابواب باريس ، حيث وضعها في ارض تخص ديرا قريبا ، وقد سألها في اثناء الطريق عن البنفسجية ، فرفضت ان تتكلم ، وقالت انها لا تعرف شيئا عنها ولا عن مصيرها .

وقبل ان يودعها بارداليان قالت له :

ــ تعال أرني يدك لاخبرك بحظك .

فمد يده .

فقالت بعد ان تمعنت فيها :

ــ لو احببت رجلا لاردت له مثل يدك ، انك معدم فقير ، ولكن قلبك كقلوب الامراء ، وانا اشفق ولا اشفق عليك ، اما اشفاقي ، فلانك

منكود شقي يحيط بك الشقاء أينما سرت ، واما عدم اشفاقي ، فلأنك تلقي بذور السعادة في طريقك كيفما سرت فيجنيها كل من يعرفك ويصحبك .

وقبل ان يغادر بارداليان الدير ، سأل الراهبة التي فتحت له الباب عن اسمه .

فقالت له :

— هنا دير البدكتين الذي تديره كلودين دي بوفيليه الراهبة المحترمة .

★ ★ ★

وفي هذه الاثناء كانت فوستا تجتمع في قصرها بمديرة الدير، كلودين دي بوفيليه ، وكانت قد ارسلت البنفسجية الى الدير المذكور ، بعد ان حكمت عليها بالاعدام لحب الدوق دي كيز لها ، ولكنها قررت تأجيل تنفيذ الحكم ، حتى يتم لها تدنيس شرف الفتاة ليقطع الدوق كل امل له فيها .

واقبلت على فوستا في هذه الاثناء ماري دي لورين ، شقيقة الدوق دي كيز ، فأخبرتها ان شقيقها قد صالح زوجته كاترين دي كليف ، بعد موت الكونت دي لوان ، كما ازداد حبه للنورية البنفسجية بعد ان اختفت ولم يعد يعثر لها على اثر .

وأخبرتها أيضا ان شقيقها الدوق قد اجتمع بالملكة الوالدة كاترين دي مدسيس ، وان الملكة قد خضعت له كما عرفت من شقيقها .. وانه سيتظاهر موقتا بالخضوع للملك ، ثم يقبض عليه ويسجنه في احد الاديرة.

فقالت فوستا :

ـ وهل هناك اخبار اخرى ؟

ـ نعم لقد ارسل اخي زوجتـه الى اللورين بعد الصلح الذي تم بينهما وطلبت فيه زوجته منه العفو والغفران •

وابتسمت فوستا وقالت :

ـ الذي يجب ان تعرفينه ان الملكة كاترين قد عبثت بأخيك ولعبت بعقله ، واتفقت معه على ان ينتظر حتى يموت هنري الثالث ابنها فيجلس على العرش مكانه •

فقالت ماري :

ـ هذه خيانة ، واخي قد خدع الحزب وخان اسرته •

فقالت فوستا :

ـ ولكنه لا يعد هذا خيانة ، وانما يعتبره سياسة عليا •• وبعد نظر عظيم •• وهو سينتظر عاما كاملا لا يحاول فيه شيئا ضد الملك •• ولهذا فيجب ان يمـوت هنري دي فالـوا ، او تقضي كاترين دي مدسيس على أسرتكم •

فقالت ماري :

ـ ومن يتولى القضاء على الملك ؟

ـ انت •

فاصفر وجه الدوقة ماري دي لورين شقيقة دي كيز ومضت فوستا تقـول :

ـ ان هنري دي فالـوا مريض ضعيف ، ولكنـه قد يعيش عشرة اعوام •• حتى ولو عاش عدة اشهر ، فان هذه المدة كافية لتقضي كاترين الملكة على اسرة دي كيز القضاء المبرم كما فعلت مع الاسر التي عارضتها ، فاختاري اذن بين ان تكوني القاتلة او المقتولة •

فقالت الدوقة ماري :

— رباه •• أأقتل بيدي •• ان هذا فوق طاقتي •
— لست اريد ان تقومي انت بالعمل ، يكفي أن تغري رجلا بقتله ، وتبذري في قلبه اشد انواع البغض له •
— ولكن كيف اجد هذا القاتل ؟
فقالت فوستا :

— انه موجود وهو يحبك حب عبـادة •• وهذا الرجل هو جـاك كليمانت •• الراهب •

وغادرت الدوقة قصر فوستا وقد اعتزمت تغذية كره الملك في قلب الراهب ، حتى يقوم بقتله •

وكان هذا الراهب بعد الحفلة التي شهدها في فندق (الآلة الهاصرة) وغرامه بالدوقة ماري دي لورين ، قد عاد الى ديره حائرا منغص العيش يحاول التكفير عن ذنوبه ، بالصلاة والصوم •

وكان ان اشتدت عليه الحمى في هذه الحالة ، فضعفت قواه العقلية، وجعل يرتعد من الخوف وهو لا يدري سببا لخوفه •

كان في الكنيسة وحده يناجي نفسه ويحاول الاستغفار حين شاهـد نورا عجيبا لم يشاهد مثله قد انبثق من القبور الداخلية الواقعة في طرف الكنيسة ، وفتح الباب ، وخيّل له في اول الامر انه يرى خيالا •

ولكنه ما لبث ان تأكد ان ما يراه شيء محسوس واقع ، فقد وقفت امامه امرأة تدهش الابصار بجمالها ، ذات شعر اشقر جميل ، وثوب ابيض بديع •• وقد امسكت خنجرا بيدها •

وضع جاك يده على قبه •• فقد كانت هذه المرأة تشبـه المرأة التي يعبدها الدوقة ماري شقيقة الدوق دي كيز •

اخـذت المرأة تبتسم للراهب حتى خف رعبـه ، وزالت وحشته ، فسألها :

ــ من انت ايتها المرأة ، الملك من ملائكة اللـه وقد جئت بصورة التي احبها ؟

فأجابته :

ــ اني من سكان العالـم الروحاني الذين يرسلهم اللـه الى من يختارهم بأوامره .

ــ ولماذا تمثلت بصورة المرأة التي احبها ؟

ــ لان الله قد اذن لك ان تحبها .

فصاح جاك صيحة فرح :

ــ ايسمح لي الله ان احبها ؟

ــ نعم .. شرط ان تنفذ الامر الذي احمله اليك .

فانتفض جاك وقال :

ــ مر ايها الملاك بما تشاء ، فان لك ايضا نفس صوتها الحنون .

ــ عليك القيام بأمر عظيم ينقـذ شعب فرنسا وقد اختارك القـدر لانقاذ هذا الشعب من ملكه هنري دي فالوا .. بأن تقتله بيدك .

واختفت المرأة وسقط جاك مغمى عليه .

ولما عاد الى نفسه ، وتذكر ما حدث له ، حسب ذلك حلما ، خصوصا بعد ان ذهب الى باب الكنيسة فوجده مقفلا ، وجال في الكنيسة باحثـا فلم يجد احدا .

ولما حاول مغادرة الكنيسة عثر على الخنجر فالتقطـه فاذا به الخنجر الذي شاهده بيد الملاك الذي ظهر له في الحلم .

فشد على قبضته وهو يقول :

ــ كلا .. لم اكن حالما .. فقد رأيت وسمعت .. ولي الحــق ان احب .. وهذا هو الخنجر الذي ارسله لي الله لقتل الظالم وانقاذ فرنساء

وغادر الكنيسة في طريقه الى صومعتــه ، ولم يكد يصل اليها حتى اغمي عليه ثانية ، وهو قابض على الخنجر .

★ ★ ★

ادخل بارداليان بيكوسي وكرواس في خدمة الدوق دي انجلــوم ، ولما اعترضا ، وقالا :

ــ انهما يفضلان خدمته على غيره .

قال :

ــ اني فقير .

ــ اننا نفضل خدمتك على فقرك .

فقال :

ــ ولكنكما لا تلقيان في صحبتي غير الخناجر والسيوف . والجوع في بعض الاحايين .

فقالا :

ــ « انهما يضحيان بكل شيء في سبيل البقاء معه » .

فلما سمع الــدوق دي انجلــوم هذا الحديث تدخــل وابقاهما في خدمته .. فرضيا وقبلا .

وفي اليوم التالي ذهب بارداليان والدوق الى دير مونمارتر لعلهمــا يحصلان من سايزيما على بعض المعلومات التي تتعلق بالبنفسجية ، وسار كراوس وبيكوسي خلفهما ، وقد ارتديا ملابس جديدة ، جعلتهما يتيهان فخرا وسرورا .

وفيما هما في الطريق شاهد بارداليا (مورفر) يتقدمه ومعه رجل آخر، فقرر اقتفاء اثرهما وطلب من صديقه الدوق الغاء زيارة الدير هذا اليوم فوافقه، ومضيا خلفهما، ومورفر لا يفطن الى ان هناك من يتعقبه، فقد كان في شاغل عن كل شيء آخر بالتحدث الى رفيقه الذي كان يرتدي لباس طحان .. ولكن من يعرفه ويحدق النظر فيه لا يلبث ان يدرك انه من رجال السيف، وليس من العمال، وهو في الواقع لم يكن غير منفيل الساعد الايمن للدوق دي كيز .

وكان منفيل يقول لرفيقه بأن الدوق قد وصله كتاب من فوستا، جاء فيه ان ثلاثين بغلا محملة بالمال في طريقها الى باريس .. ولتعلم اننا اذا حصلنا على هذه الاموال، فان نفوذ الدوق يزداد قوة. ويصبح نجاحه امرا واقعا .

ولهذا فان علينا ان نتأكد من الامر، حتى اذا كان صحيحا ارسلنا بالخبر الى الدوق ... فيأتي مسرعا للاستيلاء على هذه الملايين .

ومضيا في سبيلهما حتى وصلا الى طريق ضيق يؤدي الى طاحونة كانت معروفة بسعتها .

وكان الطريق ضيقا كما قدمنا، وقد دهش مورفر حين شاهد ثلاثين بغلا تسير في ذلك الطريق ... وهي تحمل اكياس القمح .

وقد احاط بالقافلة جماعة من الرجال كانوا يرتدون ملابس العمال العاديين .

وصاح منفيل يقول :

ــ هذه هي البغال المذكورة في الرسالة .. ولكن يجب ان نتأكد من صحة الخبر على كل حال .

وتقدم منفيل الى احد البغال ، فأمره حارسه بالسير في سبيله •

فقال منفيل :

ــ ان الضابط رفيقي هو احد الضباط المكلفين بقبض الدخولية والرسوم المتعلقة بالحبوب •• وانا احد عمال الطاحونة •

فنظر الحارس اليهما نظرة ارتياب ، وقال مورفر :

ــ وانا اريد ان اتاكد من نوع القمح الذي تحمله •

تطلع الحارس حوله فوجد رفاقه قد سبقـوه ، فرأى التحايل على الرجلين فقال :

ــ تفضلا وافحصا القمح •

وفتح رأس الكيس واخرج حفنة من الحطين أراهما اياها •

ولكن (مورفر) لكز الكيس فوقـع على الارض ، فلما انشغـل حارسه برد الطحين الذي سقط منه ، كان مورفر قد مد سيفـه الى داخل الكيس فاصطدم نصله بكيس آخر ادرك من صوته انه يحتوي على كمية من النقود ، فاصفر وجهه ، وقال للحارس :

ــ حسنا أعد الكيس الى مكانه •

ولكن الحارس اخرج غدارته من جيبه ، فقال منفيل لرفيقه :

ــ هلم بنا فان الحارس مجنون كما يبدو •• ومضيا •• واطلـق الحارس غدارته على مورفر فأصاب قبعته ، واختفى الرجلان •

وعاد الحارس الى كيسه ، فمد يده الى داخله ، ولما تأكد من وجود كيس النقود فيه ، هدأ روعه ، واعاد كل شيء الى مكانه ومضى في سبيله لاحقا برفاقه •

كان مورفر يقول لمنفيل بعد ان ابتعدا عن المكان :

ــ اذا كان ما في بقية الاكياس مثل ما في هذا الكيس ، فان المبلغ الموجود عظيم •

فقال منفيل :

ــ نعم ان هذه البغال تحمل عدة ملايين •

واخذ مورفر يفكر في سرقة احد الاكياس والهرب به ، وعرف منفيل ما يجول في خاطره ، فقال :

ــ هب انك فعلت ذلك فماذا تفعل بالذهب ؟

ــ اغادر هذا البلد فقد اصبح هواءه ثقيلا عليّ كما ان هناك خيالا يطاردني فيه واريد الهرب من وجهه •• لقد ضقت ذرعا بنفسي في السنوات الاخيرة . ومنذ خمسة عشر عاما •• وانا لا اكاد استقر على حال •• فما سرت في طريــق واطمأنت الى اني سأخرج منه سالما ما دام هذا الرجــل يطاردني •

فقال منفيل :

ــ هوّن عليك يا مورفر •• ان الدوق دي كيز سيصبح ملكا •• وستنال في عهده وظيفة محترمــة ، وقد بلغت المؤامرة مرحلتها الاخيرة ، وهذا المال سيعززها ويدفعها بسرعة الى الامام •• لقد وعدنا به البابا •• ثم ما لبث ان بدّل فكره ، وقد وصل المــال الآن ، ولم يبق امامنـــا الا الاستيلاء عليه •• ولهذا سنجمع بعض رفاقنا البواسل ونهاجم الطاحونة ليلا ونستولي على الاكياس ونذهب بها الى الدوق، وسوف اقول للدوق، بأنك انت الذي اكتشفت المال ، وانك بحاجة الى مائتي الف ريال ، وهو

بالتأكيد لن يتأخر عن دفع المبلغ .. تقديرا للخدمة العظيمة التي أديتها لحزبه .

ومضى الصديقان لجمع عدد من الرجال واقتحام الطاحونة ليلا ، وعلى الاثر خرج بارداليان من خلف شجرة كان مختبئا خلفها ، ونظر الى مورفر نظرة مرعبة وهو يقول :

— لقد ظفرت بك الآن .. ولن تفلت من يدي .

وعاد الى الدوق الذي كان ينتظره بعيدا ، وقال له :

— عد الى منزلك فاحمل سلاحك ، وسلح حارسيك ، وسأنتظركم في هذه الطاحونة التي تراها قريبا من هذا المكان ، فاني اريد العبث بالدوق دي كيز ، وسأضربه ضربة لا تقوم له بعدها قائمة .

ومضى الدوق مسرعا لجلب سلاحه ، فيما تحوّل بارداليان نحو الطاحونة ، التي قرر ان يمنع رجال دي كيز من الوصول الى الذهب الموجود في أكياس الطحين ... كما سمع منفيل ومورفر يقولان .

- ٧ -

معركة في الطاحونة

لم يجد بارداليان احدا من الحراس حول الطاحونة ، لما اقبل عليها، فقال في نفسه :

ــ احقا ان هذه البغال تحمل اكياسا من الذهب ؟ ان مورفر ليس من الاشخاص الذين تخدعهم الظواهر .. ولا بد ان يكون متأكدا مما يقوله .

ولما احتوته الطاحونة ، استقبله احد عمالها .

فقال له :

ــ اريد التحدث الى سيدك لشراء بعض القمح .

واقبل رجل آخر في هذه الاثناء ، فلما شاهد بارداليان بسلاحه ، قال له :

ــ ماذا يريد سيدي ؟

ــ اني احتاج الى ثلاثين كيسا من القمح ، فان اتفقنا كان لك من وراء هذه الصفقة ثروة كبيرة .

نظر الرجل الى بارداليان باهتمام ثم قال :
ــ اتريد شراء ثلاثين كيسا ؟

ــ نعم •• عليّ ان اختار انا هذه الاكياس ، وهي التي وصلت منذ ساعة محملة على ثلاثين بغلا •

فأدرك الرجل عندئذ ان بارداليان عارف بسر الذهب ، فنادى رفاقه، فأقبلوا عليه ، وجرد بارداليان سيفه •

وقبل ان يبدأ القتال بين الفريقين، اقبل شيخ ظاهر الجلال والاحترام، فأشار بيده الى الحراس الذين احدقوا ببارداليان ، فغادروا المكان مطرقي الرؤوس وأغمد بارداليان سيفه ، والتفت الشيخ الى بارداليان يقول :

ــ اني صاحب هذه الطاحونة ، فما الذي تريده ؟
فقال بارداليان :

ــ الافضل مصارحتك ، فقد عرفت سر البغال والمال الذي تحمله •
فقال الشيخ :

ــ لقد صدقت ، ففي هذه الاكياس ثلاثة ملايين •• اذاً فأنت الرجل الذي ادعى انه من ضباط الدخولية ؟
ــ اني لا أتدانى للكذب •• ولكني سمعت هذا الرجل يتحدث الى رفيقه بسر الاكياس •
« تعال حدثني •• لماذا منعت رجالك من مقاتلتي ؟ »
ــ لان وجهك ارضاني•• فما اسمك ؟
ــ اني ادعى الشفاليه دي بارداليان ، وانت ما اسمك ؟
فقال الشيخ بعد تردد قصير :
ــ اني ادعى بيرتي •• والآن حدثني بغرضك ، وما الذي تريده ؟
ــ هل عرفت الرجلين اللذين تعرضا لصاحب البغل الاخير ؟

فقال الشيخ :

ــ لقد عرفت احدهما ، انه منفيل احد رجال الدوق دي كيز .

« وانت الست من رجاله ؟ »

ــ اني لست من رجال احد ، وقد اقتفيت اثر الرجلين لان الرجل الآخر يهمني أمره فعرفت سرهما ، وعرفت انهما ذهبا لجلب بعض الرجال ومهاجمة الطاحونة ، والاستيلاء على المال ، فقررت منعهما .

واصفرّ وجه الشيخ عند سماع هذا الكلام وقال :

ــ ولكنك تخاطر بحياتك في سبيل الدفاع عن هذا المال ، فما الذي تريده من الجزاء مقابل ذلك ؟

فقال بارداليان :

ــ اني لا اريد شيئا .

وبدت على وجه الشيخ امارات الارتياب ، فأسرع بارداليان يقول :

ــ لا تعجب ايها الشيخ فهذه هي اخلاقي .. ولو كنت تعرفني لما تعجبت .. وارجو ان تثق لاني من المخلصين فيما اقوله ، واني لست من اعدائك .

ــ واذا لم اثق بكلامك ؟.

ــ اضطر الى قتلك وقتل رجالك لامنع الدوق دي كيز من الوصول الى هذا المال .

فقال الشيخ :

ــ حسنا ايها الشاب .. ولكي ابرهن لك عن ثقتي بك تعال ادلك على مكان المال .. فتعال معي .

فلم يتحرك بارداليان من مكانه وقال له :

ــ لا حاجة الى معرفة ذلك ، واذا كنت تقبل نصيحتي ، فغادر

الطاحونة مع هذا المـال الى مكان امين ودعني فيها ارد كيـد اعدائك ، واؤخرهم عن مطاردتك .

فقال الشيخ وقد انبسطت اساريره :

ــ عذرا اذا شككت بك .. ولو كنت مكاني لارتبت بكل انسان ، وسأذكرك بالخير عند الحبر الاعظم .. فيكافئك بما تستحقه .

ــ لا عليك من ذلك يا سيدي ، فلسوف احصل على مكافأتي عندما انجح في منع الدوق من الوصول الى المال .

ذهل الشيخ لجوابه ، ودعاه لتناول الطعـام معه ، فرضي الفارس ، ولاحظ خلال الطعام ان رجال الشيخ كانوا يجلونـه اجلالا عظيما ، وان طعامه لم يكن من الاطعمة المألوفة ، التي يتناولها عامة الشعب .

ولما فرغ الجميع من تناول الطعام اقبل الدوق دي انجلوم وكرواس وبيكوسي ، يحملون سلاحهم وذخيرتهم معهم ، فقال الشيخ لبارداليان :

ــ يبدو انك من اهل الحذر . فهل تعتقد حقيقة ان الدوق دي كيز سيهاجمنا ؟

فقال بارداليان :

ــ بالتأكيد ، وستجد عند المساء جيشا من رجال حول الطاحونة .

★ ★ ★

اخذ الشيخ يفكر .. ويقول في نفسه :

ــ خير لي ان اكون في قصر الملكة ، فما الفائدة من وجودي في هذا المكان ، ومن يدري فقـد تصيبني رصاصة في اثناء المعركـة ، فتذهب في

حياتي .. فما يقول العالم والحالة هذه حين يسمع ان سيكست كنت ، قد قتل في الطاحونة ؟

ولكن البابا كان رجلا شجاعا فقرر البقاء ، ومشاهدة ما يقع .
ولما توارت الشمس، ارسل بارداليان بيكوسي وكرواس للاستطلاع.

فخرجا يراقبان الطريق المؤدي الى باريس ، حتى لاحت لهما من بعيد، فرقة من الفرسان مؤلفة من اربعين فارسا ، وهي بقيادة منفيل ، وقد مشى الى جانبه مورفر وبيسي لكلرك وكريسي ، وغيرهم من انصار دي كيز .

وكان معهم رجل مقنع لم يكن غير الدوق دي كيز نفسه ، حضر مع رجاله ، حتى يتأكد من حصوله على المال ، وعدم تبديد رجاله لبعضه .

واسرع الرجلان نحو الطاحونة لانذار بارداليان ، وكرواس يحاول اقناع رفيقه بالنجاة بحياته ، وبيكوسي يحذره من خيانة بارداليان ، حتى تعثر كرواس وسقط ارضا .

فتركه بيكوسي وشأنه ومضى في سبيله ، فيما راح كرواس يـدور يمينا وشمالا ، والفرسان يتقدمون نحوه ، حتى وصل الى كنيسة قريبة ، تسلق نافذتها وكسر زجاجها ، ووثب الى داخل الكنيسة .

فلما احتوته وشاهد المقاعد حوله ، ظنهم فرسانا أحاطوا به ، فجرد سيفه يقاتلهم ، حتى ذهبت قواه وسقط على قفاه .

وسمع دوي البنادق فذعر ، واخذ يحرك يديه حوله فعثر على حلقة من الحديد في الارض فأمسك بها، واخذ يضغط عليها ، فتحركت وانفتحت عن هوة .. فانسل الى الهوة وهو يصيح ويستغيث .

وكان الظلام حالكا.. ولكنه احس انه ينزل سلما ، فلما انتهى منه.. وجد نفسه في سرداب طويل اخذ يركض فيه ، ووقع اقدامـه يدوي على

البلاط ، فيحسب ان اعداءه ما يزالون يطاردونه ، حتى التطم وجهه بجدار فطاش من اثر اللطمة ، ووقع على الارض لا يعي •

وكان بيكوسي في هذه الاثنـاء قد وصل الى الطاحونـة ، وانذر بارداليان بقدوم الفرسان ، وان كرواس تعثرت رجله فسقط ارضا ، وهو يداويها الآن •

وعندئذ جمع بارداليان كل من في الطاحونة من الرجال ، فبلغ عددهم سبعة عشر رجلا •

واما النساء العاملات ، فاقمن في قاعة تشرف على الحقل •

وبعد ان قسّم بارداليان الرجال ووزعهم هنا وهناك ، امرهم باطلاق النار عند رؤيتهم لرجال دي كيز •

فلما حاول هؤلاء ان يتقدموا في الرواق المؤدي الى الطاحونة انصبت عليهم النيران من كل جانب ، فأصيب من اصيب وارتد من ارتد •

واشرق وجه الشيخ عند سماعه صوت النار •

وقال :

ــ ان بارداليان صادق مخلص •• فلن يحصل الدوق دي كيز على المال ، ولن يملك فرنسا غير هنري دي نافار •

وقرر الشيخ الخروج بالمال برجاله لما سمع بارداليان يقول :

« انهم لن يعودوا الى الهجوم قبل ساعة » ولما ابلغ بارداليان قراره وافق عليه ، وابلغه انه سوف يقاتل رجال دي كيز مدة طويلة حتى يطمئن الى ان المال قد اصبح بعيدا •

وخفق قلب الشيخ سرورا لهذا الوعد •

وقال له :

ــ انك لا تريد جزاء على خدمتك هذه ايها الشاب •• فلا سبيـــل

والحالة هذه الى اقناعك بتبديل رأيك ، ولكن خذ هذا الخاتم ، فانه قد يفيدك في بعض الحوادث ، اكثر مما تفيدك الثروة .

واعطاه خاتما من يده ، فلبسه باردليان في اصبعه ، دون ان يلقى بالا لخطره .

وكذلك غادر الشيخ الطاحونة مع رجاله يحملون الاموال ، من الباب الخلفي ، حتى اذا وصلت القافلة الى مكان بعيد ، تقدم كبير الخفراء الى الشيخ ، فحنى رأسه باحترام امامه وسأله :

ــ أيأمر مولاي ان نسير في طريق رومه ؟

فقال له :

ــ كلا ايها الكونت .. بل اريد منك ان تسير في طريق روشل .

وبقي باردليان والدوق انجلوم وبيكوسي ، وحدهم في الطاحونة ، بعد ان هرب جميع عمالها ، حتى ان صاحبها فارقها .

وبعد ساعة من الزمن ، سمع باردليان وقع اقدام رجال دي كيز يتقدمون في الرواق ففتح النافذة ، وصاح بهم :

ــ من انتم وماذا تريدون ؟

فقال رجل بلهجة الامر :

ــ بل قل لنا انت من تكون ؟

ــ اني صاحب الطاحونة .

ــ اذاً عليك مغادرة هذه الطاحونة انت وعمالك بعد ان تعرضت لرجالي واطلقت عليهم النار ، او اصدر امرا الى رجالي باعدامك شنقا .. واما اذا خرجت دون مقاومة ، فاني اعفو عنك .

فقال باردليان :

ــ اتسمح لي يا سيدي بأن آخذ معي اكياس الذهب التي تريد استلابها ؟

فقال له الدوق :

ــ اخرج من هنا او نبيدكم .

ثم فكر الدوق انهم قد يكونوا عددا كبيرا .. فتردد وتهيب .

فقال بارداليان :

ــ جرب ان تهاجمنا .. ولا تخف فما نحن الا عدد قليـــل ، اننا لا نعد اكثر من ثلاثة .. انا بارداليان والدوق .. وبيكوسي .

فقال رجل قريب من الدوق :

ــ انه كاذب فهم كثيرون .

وعندئذ قرر الدوق ارسال رسول الى باريس في طلب نجدة كبيرة ، وبعد ساعتين عاد الرسول يقول :

ــ سيصل الف رجل بعد ساعتين .

وكان بارداليان في هذه الاثناء قد قام بتحصين الطاحونة حذرا من الطوارىء .. واما منفيل فخشي ان يقوم بارداليان باخفاء المال ، فقرر مع (بيسي لكلرك) التقدم نحو الطاحونة والتأكد من رجال بارداليان وعددهم وقوتهم .

وتقدم الرجلان في جهة السلم المؤدي الى الطاحونة ، فبلغا مركــز الآلة ، وفتشا المكان ، فلم يجــدا احدا . فحسبا ان جميع الرجــال قد تحصنوا في داخل الطاحونة وعند نوافذها المختلفة .

وفيما كانا يفكران بالرجوع ، شاهدا نورا خفيفا ينبعث من خــلال باب في اعلى السلم ، فدنا الاثنان منه ، فوجداه مفتوحا ، فأطلا فاذا بهما يشاهدان بارداليان والدوق دي انجلــوم يأكلان وبيكوسي يصب لهمــا الخمرة .

والتفت بارداليان فجــأة فشاهدهما فضحك ودل الــدوق عليهما ،

ودعاهما لمشاركته في طعامه وشرابه ، ووثب الـدوق فاستل سيفه ، وكان الرجلان من البسلاء ، فخطر لهما ان يقبضا على بارداليان ورفيقه ويذهبا بهما الى الدوق ، فيقدر لهما عملهما هذا كل التقدير .

تقدما يطلبان من بارداليان ورفيقه الذهاب معهما .. فوثب بارداليان الى السلم كي يحول دون هربهما .. فيما ضرب (بيسي لكلرك) بيكوسي بقبضة حسامه فألقاه آرضا .. وبدأت المعركة .

الدوق امام منفيل .. وبارداليان امام بيسي .. وبعد قتـال عنيف تمكن بارداليان من جرح خصمه وهو يراقب رفيقه الدوق ، ويقول له :

ــ لا تقتله يا شارل ، واضربه الضربة التي علمتك اياها .. وجرده من حسامه ثم قيده .. فاني اريد العبث بهما .

وعمل شارل بنصيحة بارداليان فضربه الضربة المذكورة فأطار سيفه وسقط على ركبتيه ، فوضع الدوق عندئذ رأس سيفه على عنقه ، وسأله :

ــ اتسلم ؟
فأجابه منفيل وقد اصفر وجهه من الغضب :
ــ نعم اسلم .

وكان بيكوسي قد استفاق من اغمائه فأسرع الى منفيل فشد وثاقه بما كان هناك من الحبال .

وعند ذلك التفت بارداليان الى خصمه (بيسي) وقال له :
ــ وانت .. هل تسلم ؟
ــ لقد قررت ان اخترق صدرك .
فقال بارداليان :
ــ ان باستطاعتي قتلك على اهون سبيل ، ولكنهم يقولون انك من الشجعان ، ولهذا سألقي عليك درسا لن تنساه .

ـ أَلِمثلي يقال هذا الكلام •• ايها الشقي ؟

ولكنه ما كاد يتم كلمتــه هذه حتى طار حسامه من يـــده ، فأسرع لالتقاطه ، فشاهد بيكوسي في طريقه يصوب اليه غدارته فأطرق رأسه واخذ يبكي لفشله •• لانهم كانوا يلقبونه بالرجـل الذي لا يغلب •• في ضرب السيف •• وكانت هذه هي المرة الاولى التي فشل فيها •

وبعد ان اوثق بيكوسي (بيسي لكلرك) عاد باردالیان لطعامه ، وبعد قليل قال الدوق :

ـ علينا ان نذهب فقد اتت النجدة •

وكان النهار قد بدأ يطل من الافق ، فقال له باردالیان :

ـ لقد اصبت •• وقد طلع النهار ، ووفيت بعهدي للشيخ •

ثم نادى بيكوسي وقال له :

ـ احمل منفيل على ظهرك •• وسأحمل انا (بيسي) ••

وكان بعض افراد الشعب قد انضموا لجنود دي كيز فلما منهـم ان الدوق يقاتل جماعة من الهيكونوت •

وكان مورفر يقف بجانب الدوق فقال له هذا :

ـ اين منفيل وبيسي فاني لا أراهما ؟

فقال :

ـ لا شك انهما اختارا مكانا آخر للهجوم •

وامر الدوق رجاله بابعاد الجمهور حتى لا يشاهدوا المال ، وتقدمهم نحو الطاحونة ، ولكنهم ما لبثوا ان سمروا في مكانهم ، لما شاهدوا ثلاثة رجال يتعاونون على ربط رجلين مقيدين الى دولاب الطاحونة، وقد عرفوا في الاول منفيل ، وفي الثاني بيسي لكلرك •

وكاد الدوق يجن من الغيظ •• وأمر رجاله باطلاق النار ففعلوا •

ولكن المسافة كانت بعيدة فلم يصب احد من الثلاثة بأذى .
فلما انجلى دخان البارود ادار بارداليان دولاب الطاحونة ورفع قبعته ، فحيا بها الدوق ورجاله ، ثم عاد مع رفيقيه الى الطاحونة .
واخذ الدولاب يسير مسرعاً .
وجعل منفيل وبيسي يصيحان ويستنجدان .. وزحف الجنود من كل مكان نحو الطاحونة .
وكان بارداليان قد اسرع الى مكان في ارض الطاحونة شاهد صاحبها يهرب منه فرفع الخشب عن الارض ، فشاهد سلماً ، فنزلوا فيه ، بعد ان ردوا الخشب الى مكانه .
وبعد لحظات شعر بيكوسي بأن الارض تهتز تحت قدميه ، فمد يده يبحث عن السبب فشاهد بلاطة تعاونوا على رفعها ، فسمعوا صوتاً يقول:
ــ تبا لكم ايها الجبناء .
فصاح بيكوسي :
ــ هذا صوت كرواس .
فقد انكشفت لهم البلاطة عن سلم من الحجارة يؤدي الى السرداب الذي نزل فيه كرواس من الكنيسة ، وبعد دقائق كان الجميع يغادرون الكنيسة الى الخارج ، فيما كان رجال دي كيز يقلبون الطاحونة رأساً على عقب بحثاً عنهم .